الطاغية نيرون

أو

قصة احتضار عصر

ترجمة بتصرف

دار الهلال بمصر

سنة ١٩٣٨



- ١ -

كانت الشمس فى مجدها الرائع تغنى فى سماء صافية الأديم ، وكانت روما المدينة الخالدة تقدم صدرها المرمرى لقبلات الشمس كأنها عاشقة مدلهة بعشيقها غراما وحبا

وكانت الظلال تترامى تحت أقدام أشجار البلوط فى حـدائق الامبراطورة ميسالين ، تنبعث منها نضارة حية مختلجة تفيض هى الاخرى غراما وحبا

والواقع أن هذه الحدائق لم تـكن صامتة بل كانت تنساب فيها أجسام نصف عارية ، تنساب وتتلاقى ، ثم تتصل وتتعانق ، ترمقها أبصار الشمس من بعد وترعاها بعين عنايتها وتلهب فيها شتى غرائز الحياة

وكانت الامبراطورة ميسالين قد انتهزت فرصـة غياب زوجها الامبراطور كلوديوس وسفره إلى مدينة أوستيا لتموين جيشه بالذخائر ، فعقدت العزم على أن تحتفل احتفالا عظيما بعيد جنى الـكروم أو عيد الاله باخوس رب المرح والسرور وسيد الحالمين والمستمتعين

وها هى ذى الآن ، هاهى ذى ميسالين الفاتنة ذات الجمال الساحر والبدن الناضر والأهواء المضطرمة والميول المعقدة المتنافرة ، ممددة على العشب الاخضر ، مسندة رأسها الى ركبة البطل سيليوس أجمل شباب روما

والغريب ان ميسالين كانت قد عشقت سيليوس وبرح بها هواه وأرادت ان يكون لها وحدها وأن يعيش بجوارها ، فذهبت الى زوجها المتتات كلوديوس وألقت فى روعه ان الآلهة سوف تنزل به

شر الكوارث ان هو لم يرض بزواجها من البطل سيليوس ، ثم جاءته بعراف عزز كلامها وألقى الرعب فى نفس الامبراطور ، وهكذا عقد زواج ميسالين على حبيبها وأصبحت فى نفس الوقت حليلة الامبراطور وقرينة سيليوس ، وكانت تود من صميم فؤادها لو استطاعت التخلص من كلوديوس وتنصيب من تحب امبراطوراً على الرومان

هذه الفكرة احتلت ذهنها وملكت عليها مشاعرها وزادتها تعلقا بحبيبها

وكان سيليوس يطيل النظر اليها ويلاطف بيده الناعمة بدنها الغض وهي ترمقه بعين حالمة وسنانة يتمثل فيها أقصى الحب وأقصى الرغبة

وفجأة انحنى الشاب وتناول بيديه رأس محبوبته وطبع على فمها قبلة طويلة محمومة ، فاختلجت المرأة وزفرت ،ورفعت رأسها الى السماء كأنها تناجي الاله باخوس الذى خلقها للحب وتقدم اليه هذه القبلة عربون ولائها وقربانا ينم عن خالص العبادة وخالص الشكر

وفى تلك اللحظة ارتفع صوت غريب ، ترامى الى سمعهما من بين الاغصان ، وأخذ يمجد الاله ويسبحه ، فتطلع سيليوس وأنعم النظر وحاول ان يتبين الرجل المختبيء وراء الأغصان ثم صاح :

— من أنت ؟

فأجاب صاحب الصوت :

— أنا باخوس نفسه !

فقال سيليوس باسما :

— خانك صوتك . لقد عرفتك

— أواثق أنت ؟

فاعتدل سيليوس فى جلسته وقال :

— انت فكتيوس فالنس ! . .

— لقد ربحت

وضحك سيليوس وقال :

— ولكن ماذا ترى هناك . وفيم تحدق ؟

فصمت فالنس برهة وظل يتأمل الافق ثم أجاب فى صوت غائر أجش :

— أرى عاصفة تتجمع فى سماء أوستيا وتوشك أن تنقض عليها ! . .


ميسالين

فارتعش سيليوس ونهضت ميسالين مضطربة ، ثم ابتسمت وتركت نفسها تتهادى بين أحضان حبيبها ، ثم غمغمت قائلة :

— ما هذه الداعبة يا فالنس ؟ . . انك لغبي !

وعندئذ انطلق فالنس نحوهما زاحفا على العشب فى خفة المصارعين ، ولما اقترب منهما تلفت يمنة ويسرة ، ثم قال فى صوت منخفض كأنه يسر الى الحبيبين أمراً من الخطورة بمكان عظيم :

— أنا لا أمزح . جاءنى رسول من أوستيا وقال لى ان كلاوديوس ونرسيس هما الآن فى الطريق الى روما ! . . ولقد أردت ان أستوثق فاستوثقت . . لمحت غبار الموكب يتصاعد من بعد . وأنا واثق كل الثقة بأن نرسيس أوغر صدر الامبراطور عليكما وصور له زواجكما بصورة هائلة مروعة وأقنعه بأن الامبراطورية فى خطر وبأن الملك سيفر من يده ، وبأن حياته نفسها أصبحت مهددة . ولهذه الاسباب مجتمعة يعود كلاوديوس فجأة الى روما ، يعود وملء نفسه الرغبة فى أن ينتقم انتقاما يعادل الرعب الذى يشعر به ! . .

وصمت فالنس وهو يلهث

فقال سيليوس بعد لحظة :

— أواثق أنت ؟

ـــ كل الثقة !

فبسط سيليوس يده لصديقه وقال :

ـــ شكراً لك ، قد يأتى يوم أعرف فيه كيف أ كافئك وأما الآن فأنا ذاهب لأجمع من الأصدقاء والأنصار ما استطعت

ثم التفت الى ميسالين قائلا لها :

ـــ وأما أنت فاذا عاد الامبراطور حقا . .

وقبل أن يتم عبارته برز من خلال الأشجار عبد أسود جلل التراب محياه ، ودنا منهم وقال وبصره شارد وصدره يعلو ويهبط :

ـــ أيها السيد سيليوس ، أرسلنى اليك صديق يحبك .. انا فى خدمة الامبراطور ولقد جئت على جناح السرعة . جئت لأخبرك ان حياتك وحبك فى خطر !

وإذ ذاك هدر سيليوس وارسل صرخة داوية ثم قال :

ـــ اذن فلا مجال للشك !

ومال الى ميسالين فاحتضنها وعانقها وقال وهو يرجف :

ـــ اذهبى ، اذهبى لاستقبال الامبراطور . حاولى اخضاعه وصرف ذهنه عنا بكل ما اوتيت من قوى الاغراء والفتنة ! . . بددى عزمه ودوخى ارادته ، واستولى على كل جارحة فيه ! اسرعى . لقد أصبحت كل دقيقة ملك القدر ! . .

***

وكان الامبراطور كلوديوس قد أغضى الطرف حتى ذلك اليوم عن كل شىء . كان يشكو عسر هضم مزمن وكانت امعاؤه تحيره وكان عاجزاً كل العجز عن التمرد أو الثورة . والعجيب فيه أن عقله القاصر لم يكن فى وسعه التفكير فى غير اللحظة الراهنة ، وأن مجرد التلويح له بحظية جميلة أو بلذة مادية وضيعة أو بطيف امرأة كان كافيا لتبديل رأيه وزعزعة ارادته وانتزاع كل حقد من نفسه

غير أنه وقع آخر الأمر تحت سيطرة نرسيس . وكان نرسيس

يطمع فى الفوز بالسلطة وفى التفرد بتسيير شئون الدولة معتمداً على ثقة الامبراطور كلوديوس به وعجزه عن التفكير المستقل الشخصى . ولم يكن نرسيس يخشى من مزاحم غير البطل سيليوس ، بل كان ينتفض ذعراً كلما تصوره وقد توثقت صلاته بالامبراطورة وراح يجهز على حياة كلوديوس توطئة للقضاء عليه هو ! . ولذا فقد اراد نرسيس أن يغامر بكل شىء ، فاما ان يتخلص من مزاحمه ومن ميسالين واما ان يذهب عن طيب خاطر شهيد مطامعه

وكان قد اخترق الموكب الراجع من أوستيا وصعد الى مركبة قيصر وجلس بجواره وأخذ فى التأثير عليه بعبارات حادة ملتهبة ملؤها الولاء والاخلاص

وافتن نرسيس فى الكلام وأودع الفاظه وبراهينه كل ما وعته بلاغته من قوة ، فاضطرب الامبراطور وأخذ يتمتم كالاطفال قائلا :

— أجل ، أجل ، يلوح لى انى لم أعد امبراطورا !

فحدق اليه نرسيس وقال :

— مايزال عرشك فى يدك . وما عليك إلا ان تأمر فتطاع .

ضع ثقتك فى، ومرنى بالعمل احفظ لك مجدك وأنقذ امبراطوريتك !

وفى تلك اللحظة اقبلت ميسالين فاصطدمت بنرسيس وأبصرته أمامها وجها لوجه . وحانت منها التفاتة فرأت على دهش منها جميع رجال الحاشـية الذين استشعروا غضب الامبراطور يتبرمون بها ويعرضون عنها

وكانت تتقدم مرفوعة الرأس صامتة بديعة الجمال كتمثال افروديت وقد انسكبت عليها غلائل بيضـاء زادتها حسنا وروعة . فمشى اليها نرسيس وصرخ فيها قائلا :

— هذا انت ايتها الفاجرة !

وكان الامبراطور واقفا خلفه فاشاح بوجهه خشية أن يراها وأن يزداد رعبا اذا ما التقى بصره ببصرها

وتراجع نرسيس خطوة ثم اتجه نحو كلوديوس وقدم اليه ملفا من ورق الرق وقال :

— اقرأ يا قيصر ! ان جرائمها مدونة هنا وكذا أسماء شركائها . اقرأ واسمح لى بانقادك !

فصاحت فيبيديا خادمة أحد الهياكل قائلة — وكانت قد أحست الخطر الذى تستهدف له صديقتها ميسالين فرافقتها لاستقبال قيصر — :

— قيصر ! قيصر ! ابناؤك فى انتظارك ! سيلقون بانفسهم بين ذراعيك ويطلبون اليك العفو عن والدتهم ! فهل يمكن أن تحكم عليها دون أن تسمع دفاعها ؟ .

وكان الذهول يسرى فى محيا الامبراطور وهو يطالع ما احتوى عليه الملف المشئوم . وحينئذ قال نرسيس لسائق المركبة :

— امض فى طريقك الى المدينة . وانت يا فيبيديا فكرى فى الاله الذى تخدمين هيكله والذى تنتهكين حرمته بكلامك هذا ! . . عودى الى الهيكل وصلى عسى أن يغفر لك الامبراطور تهورك

وهكذا سيقت ميسالين الى روما كالأسيرة ، واضطرت امام غضب الجماهير إلى أن تخترق احياء وأزقة نائية مظلمة حتى وصلت الى القصر ، وهناك فى الابهاء الواسعة وبين التماثيل البيضاء ، جلست بالقرب من والدتها تعلل النفس بامكان تحول قيصر عن عزمه عند ما يبصر بريتانيكوس وأوكتافيا . وظلت مطرقة تفكر الساعات الطويلة فى تنظيم دفاعها ، ونفسها المعذبة حيرى بين الموت الذى ينتظرها والعفو الذى قد يهبط عليها فجأة من سماء الاله الرحيم باخوس شفيعها لدى الآلهة . وكانت زائغة البصر مشوشة الفكر مضطربة الحواس شديدة الأمل أبعد ما تكون عن تصور تلك الارادة الجبارة التى استحوذت على خصمها نرسيس والتى توشك أن تنتصر عليها وتوردها فى الغد مورد التهلكة

واقتاد نرسيس كلوديوس وجعل يتنقل به فى الحجرات التى يتكون

منها بيت سيليوس .وشرع ذلك الخصم الجبار يضرم فى فؤاد الامبراطور نار الغيرة ، ويرشده الى مختلف الآثار الجميلة والتحف الفنية النادرة التى نقلتها ميسالين من مخدعها الخاص لتحلى بها منزل حبيبها

وكان نرسبس يفيض ولاء واخلاصا ويقول فى لهجة حادة عنيفة :

— انظر وتأمل وفكر فى عظمتك المدنسة . فكر فى ثوبك الملكى الملوث . ان المجرمين قد حاق بهم الفزع . واما الذين قد وهبوا أنفسهم لاقرار العدل وتوقيع القصاص ، فكل فرد منهم رهن اشارتك فما الذى تأمر به الآن ياقيصر ؟

فتمتم الامبراطور قائلا :

— الموت ! . الموت لسيليوس ولشركائه جميعا . أما الامبراطورة فسأنتقم ، سأعرف كيف انتقم ! .. لقد انقذت حياتى بل لقد انقذت روما . . لن انسى ذلك . . انت صديقى . . صديقى الأوحد . . اقتلهم جميعا !

— وميسالين ايها السيد ؟

— فيما بعد . . فيما بعد

انها الآن فريسة الرعب وخير لنا أن نطيل أمد عذابها ما استطعنا

فلم يصر نرسيس على رغبته ولم يلح فى الطلب خشية أن يثير أعصاب الامبراطور فينقلب عليه فجأة بغير مسوغ . ولقد اكتفى نرسيس فى ذلك اليوم بالتخلص من أعدائه ، وكان رجلا قوى الارادة سريع التنفيذ فلم يتريث وأعد العدة من ساعته للقضاء على خصومه



كلوديوس

اجمعين فأصدر أوامره لاتباعه وهو يبتسم ابتسامة هادئة فاترة ينعكس عليها ضوء عينيه المتوهجتين فيزيدها حنقا وبغضا . ثم انطلق بالامبراطور الى حيث أعد له مأدبة رائعة أنهكت أعصابه وأثقلت امعاءه وأشعرته بداثه الزمن وذهبت خمرها بصوابه وأفقدته خاصة الادراك والتفكير

وامتنع نرسيس عن الشراب وظل مالكا حواسه يتلقى الانباء من اتباعه وينقلها الى الامبراطور

وعلى حين فجأة صاح نرسيس قائلا وقد غمر الفرح نفسه وتألقت عيناه نشوة ونصراً :

— سيليوس ذبح ! . وكذلك اصدقاؤه فالنس وبروكولوس وبومبيوس وتروجوس !

وكان الامبراطور يبتسم ابتسامة بلهاء ويحشو فمه بالطعام ثم يتجشأ وأما نرسيس فاستطرد يقول :

— المحافظ قتل ، ومفتش الالعاب الرياضية قتل ، وجونكرس عضو مجلس الشيوخ قتل أيضا وكلفته الخيانة حياته !

فهز قيصر رأسه وقال :

— حسن جداً . . حسن جداً . هذه عبرة للخوارج جميعا ! . . فلنشرب ولنشكر الآلهة

ولعبت الخمر برأس الامبراطور وأرخت عضلاته فكاد يتأرجح على الوسائد وعيناه مغمضتان وشفته متدلية وذهنه الملبد يحاول أن يستقر على فكرة جالت برأسه ، فلا يستطيع . وأخيراً تمكن منها واقتنصها وقال :

— إذن فأرسل الى تلك الشقية من يقول لها انى انتظرها غداً لأسمع دفاعها .. والآن لندع كل هذا ولنشرب . . لنشرب

فنهض نرسيس وانحنى أمام قيصر وقال :

— ان رحمتك أيها السيد العظيم تعادل فكرك الثاقب وحزمك المجيد قوة ونشاطا

فلوح كلوديوس بيده وغمغم قائلا :

ـــ بالطبع .. هذا شىء أكيد .. لنشرب

وخرج نرسيس متئد الخطى يبتسم ابتسامة ساخرة تنم عن احتقاره العميق للامبراطور وبغضه الشديد لجميع القوانين وجميع الآلهة التى تقف عقبة فى سبيل مطامعه

ولما بلغ الباب تمثلت له الامبراطورة فى حلة فاتنة تنسكب عليها غلائلها البيضاء فقطب حاجبيه ولمع بصره وانقبضت عضلات وجهه ، فدفع أحد اتباعه بيده وأسر اليه قائلا :

ـــ ميسالين يجب أن تموت ! . هذا أمر قيصر وأنت وأتباعك عليكم التنفيذ فى الحال . تقدمهم وعد سريعا وبلغ الامبراطور النبأ

وكر نرسيس راجعا ، صافى الوجه منبسط التقاطيع وانحنى امام سيده قيصر وأخذ مكانه بجواره !

* * *

انتفض قلب ميسالين رعبا عند ما أبصرت الجنود يدخلون عليها ويحدقون بها ونية القتل تبرق فى عيونهم وحكم الاعدام يتمثل فى تلك الغلظة المروعة التى امتاز بها زعيمهم

وأرسلت الامبراطورة صرخة هائلة وحجبت وجهها بكلتا يديها ولم تستطع أن تتصور لحظة واحدة ان دولتها قد دالت ، ونورها قد خبا ، وعظمتها قد اضمحلت وانتهت ،وجسمها الأملس الناعم سيصبح عما قريب طعاما للدود وفريسة للتراب

أدركت ان ليس فى وسع أحد مد اليد لانقادها ، فغلبها اليأس وتملكتها الحسرة وانفجرت تبكى وتشهق والجند ينظرون اليها فى غير احتفال صامتين جامدين وزعيمهم يقدم اليها الخنجر الذى عليها أن تغمده فى احشائها امام الجميع

وتناولت الخنجر فى النهاية وأدنته من صدرها فارتعشت وتركته يسقط وقالت فى شبه زئير :

— لا أريد . لا أريد أن أموت . الرحمة . الرحمة ، دعونى أقبل اولادى ! لا أريد ان أموت !

فقال كبير الجند :

— هذا أمر قيصر !

فتراجعت ثم ارتمت عليه تحاول احتضانه واستجداء مرحمته ، فتقهقر الجندى خطوة ، ثم غافلها واستل سيفه ، ثم رفع ذراعه واخترق بالسيف صدرها فاغمضت عينيها ثم تأوهت ثم تمايلت على نفسها ثم سقطت على الأرض جثة بلا حراك

ولما انحنى عليها كبير الجند وأيقن أنها لفظت النفس الاخير ، أشار الى أتباعه بالانسحاب ثم خرج من فوره ويمم وجهه شطر البهو الكبير حيث أقيمت المأدبة لقيصر

وهناك جثا عند قدمى الامبراطور وقال :

— مولاى . ان ميسالين قد ماتت !

ففغر كلوديوس فمه كأبله وفتح عينيه بعض الشىء وتمتم قائلا :

— ميسالين ماتت ؟ . ميسالين ماتت ؟ . .

ثم التفت الى نرسيس وقال :

— لقد أنقذت الامبراطورية . وأنا أسند اليك منصب جامع الضرائب منذ الساعة . فلنشرب . فلنشرب . . .

* * *

وبعد ساعة واحدة من مقتل الامبراطورة ، فتح باب مخدع الغادة الجميلة (اجريبين) ابنة أخت الامبراطور ، ودخل عشيقها بالاس فتلقته مفتوحة الذراعين فعانقها ثم غمر وجهها بالقبلات فتطلعت اليه مذهولة وظلت تتفرس فيه وقلبها يخفق وذهنها المتوقد يلمع فى عينيه فرحا عظيما جارفا

وكانت اجريبين امرأة شديدة المطامع وافرة الذكاء لئيمة خبيثة ماكرة دساسة ، أحبت بالاس لنفوذه الكبير عند قيصر وقربته اليها

ومكنته من نفسها وجعلت تتوسل به لتحقيق مطامعها ، فلما أبصرته مشرق الوجه متهلل الأسارير خالجها ضرب غريب من القلق الممزوج بالحنق ونفاد الصبر . فصاحت به :

— ما وراءك ؟

فاجاب :

— ميسالين قتلت !

فلم ترتجف ولم يبد عليها أى اضطراب . وكانت فى جمالها الهادىء الواثق المطمئن أشبه بتمثال الهة خلعت عليها العبادة حلة رائعة من وقار ومجد

وظلت واقفة تسرح النظر فى الأفق البعيد وتتأمل فى أطواء المستقبل وعينها الحادة مصوبة الى روما ، الى المدينة الخالدة التى تلوح من الشرفة العالية كأنها حسناء ممددة عند قدمى اجريبين

وأخيراً قطع بالاس حبل الصمت وقال :

— يا ابنة جرمانيكوس ، ان ساعتك قد دنت ! ان أمل العالم يتصاعد اليك ويتجه نحوك كالصلاة ! اقترنى بكلوديوس تصبح الامبراطورية لك ، وأنا سأضع نفوذى وحبى في خدمتك ! يا اجريبين الجميلة انى أحييك الآن باسم امبراطورة الرومان !

فأشاحت المرأة بوجهها وعضت على شفتها وأخفت سرورها ما استطاعت وغمغمت قائلة :

— دعنى . . انصرف . . أريد ان أشكر الآلهة قبل كل شيء ، اريد أن أصلى بجوار الفراش الذى يرقد فيه ولدى دوميسيوس !

- ٢ -

مادا حل بالعظمة الرومانية القديمة وفى اية مهواة توشك أن تتردى الامبراطورية ؟

ان حثالة الأمم القاطنة حول البحر المتوسط غزت روما واختلطت بأبنائها وكادت تطرد منها سلالة رومولوس .

هذا ومجلس الشيوخ لا يحرك ساكنا ، وطوائف المحظيات والبغايا تعيث فى البلاط فساداً ، والاجرام ينتشر ، والفوضى الخلقية تضرب فى البلاط أطنابها ، والبرابرة تتحين الفرص للانقضاض على الامبراطورية والجموع اليهودية التى اعتنقت مذهب المسيح تتبرم بآلهة روما وتعلن عليها حربا هائلة

والواقع أن الأباطرة الذين خلفوا قيصر اغسطس لم يحفلوا بمبادئه ولم يترسموا خطاه بل أمعنوا فى غيهم وتمادوا فى الجرى وراء شهواتهم وجعلوا من حياتهم سلسلة متصلة من الجرائم ، ومجموعة نكراء من الدسائس والانتقامات واهدار الدم البرىء

ولقد كان المحاسيب والمتزلفون المقربون اليهم يحكمون بدلا منهم ويستبدون بالسلطة ويتشحون بذلك المجد المرهوب الذى ينشده كل وصولى

وكانت عين احريبين ترقب كل هدا وتطمح الى العرش متأهبة لبذل كل مرتخص وغال فى هذا السبيل

كانت الكبرياء تحتل نفسها ، والظمأ الى المجد يعكر عليها صفوها والشعور بقوتها واحقيتها للملك يستولى عليها ويلهب عزمها ويزيدها

ايمانا بأن فى مقدورها أن تشارك ذلك الامبراطور الهرج كلوديوس أعباء السلطة بل ان تنتزعها من يده انتزاعا وتنفرد بها

ولقد حدث بعد موت ميسالين أن أصبح القصر مباءة دسائس وتنازع السلطة ثلاثة رجال كانوا فى الأصل عبيداً ثم تحرروا ثم استطاعوا بذكائهم النادر واتصالهم بالكبراء وقدرتهم على جمع المال أن يندسوا فى القصر ويملوا ارادتهم على الامبراطور

وهؤلاء الثلاثة هم كاليست وبالاس ونرسيس مدبر المؤامرة والعامل الأكبر فى القضاء على ميسالين .

كانوا يغرقون ارادة الامبراطور فى المآدب الحافلة بمختلف أنواع الطعام والشراب ، وكانوا يحيطونه بأجمل المحظيات يتحكمن فى اهوائه وميوله ، وكانوا يزينون له شتى ضروب اللذات ، وكان كل واحد منهم يبحث عن امرأة يقيمها امبراطورة على الرومان بدلا من ميسالين كى يستأثر هو بالحكم عن طريقها ويخضع كلوديوس بواسطتها ويظل صاحب الأمر والنهى فى البلاد

وكان كل واحد منهم يرمى الى تحقيق هذا الغرض ليسحق خصمه ومنافسه ويضربه ضربة لا قيام له من بعدها

ووقع اختيار بالاس على أجريبين ولكن أجريبين كانت تعتمد على نفسها أكثر مما كانت تعتمد عليه

ووقع اختيار كاليست على سيدة نبيلة تدعى لوليا بولينا . واما نرسيس القوى الجرىء المغامر الذى ألقى الذعر فى فؤاد أجريبين وأرغمها على أن تحترمه وتحسب حسابه ، فقد كان ينصح لكلوديوس باسترجاع زوجته الأولى (ايليا باتينا) التى كان قد هجرها ليقترن بميسالين

وكانت هذه المرأة مخلوقا هادئا متواضعا فبدا لنرسيس أنها ستفرح أشد الفرح إذا ما رد اليها اعتبارها وعادت امبراطورة كما كانت ، فتستسلم له وتصدع بأمره وتطيعه فى كل شىء شاكرة

ولم يكن نرسيس ليحفل بأجريبين أو يقيم لمطامعها أى وزن كان يعتقد أن صلة القرابة الوثيقة التى تربطها بالامبراطور تحول بينها وبين الزواج منه بحسب شرائع روما . وكان لا يتصور أن فى الامكان أن تنتهك تلك الشرائع وأن يعبث بها كلوديوس متحديا شعب روما وغضب الآلهة

ولا شك فى ان اجريبين كانت تدرك كل هذا . ولكنها كانت تعلم فى نفس الوقت علم اليقين أن كلوديوس يحبها ويشتهيها ، وان إعراضها عنه وتمنعها عليه يزيدان فى ميله اليها وتعلقه بها وتأهبه عند الاقتضاء لتحدى الشعب والآلهة فى سبيلها

وكانت أجريبين اذ ذاك فى الثانية والثلاثين من عمرها ذات جمال نقى وفتنة ناضجة ومعرفة تامة بميول الرجال

ولقد أحست ولع كلوديوس بها فلم تضطرب ولم تضعف ولم تمكنه منها ، بل تعالت عليه وصدفت عنه واحتفظت بنفسها للساعة الفاصلة التى تستطيع فيها أن تفرض ارادتها عليه وتجبره على التزوج منها بصرف النظر عما يمكن أن يثيره مجلس الشيوخ من مشاكل، وعما يمكن أن يحدث هذا الزواج من أثر سوء بين جماهير الشعب

تجاه فتنة أجريبين شعر نرسيس بالضعف ولكنه أخفى شعوره وتظاهر كعادته بالقوة وعدم الاكتراث

وكان يراها على مضض تزور القصر كل يوم ، يقدمها الى كلوديوس عشيقها بالاس ، فكان يغضب ويلعنها ويحاول صرف الامبراطور عنها ولكن على غير جدوى

وأما هى فقد كانت تقبل على قيصر ثم تعرض عنه ، تعلله بالحب المتبادل ثم تفلت منه ضاحكة ، تمنحه بعض القبل ثم تسرع باسترداد نفسها ، قائلة له والابهة المهيبة تبرق فى حدقتيها :

— ان دم القياصرة يسرى فى عروق . فاى عار يكون عارى وانا أقرب النساء اليك لو منحتك هكذا نفسى وأصبحت عشيقتك ؟ أجل،

أنا أحبـك ولا أطيق فراقك ولكنى أحب كرامتى وشرفى . فدعنى أراك فقط ، دعنى أراك شفقة على نفسى وعليـك . ولكن اعلم ان من واجبك ان تحترم فضيلة المرأة الرومانية التى أمثلها !

وفى غضون ذلك كان الداهيـة بالاس يزين لكلوديوس زواجه منها ويخلو به فى ساعات لهوه ويصب فى أذنه أمثال هذه العبارات :

— ان اجريبين هى ابنة القائد الرومانى العظيم جرمانيكوس المنحدر من سلالة أغسطس ، فزواجك بها يضيف الى مجدك مجداً ويعزز نفوذك وسلطانك ،


اجريبين

ان الشعب يحبها وهى امرأة ولود ولسوف تعقب منها خلفا يتولى الحكم من بعدك ثم ... ثم هى تحبك ، تحبك برغم القرابة الوثيقـة التى تربطهـا بك . برغم انك خالها... فهل يروق لك أن تدعها لغيرك ، هل يروق لك ان تدعها تقترن برجل قد يكون طموحا وقد يستخدمها لتهديدك وزعزعة امبراطوريتك ؟ . . .

فيهز كلوديوس رأسه ويجيب وقد استحوذ عليه القلق :

— ولـكن ماذا يقول مجلس الشيوخ ، ماذا يقول الكهنة ، وهل يرضون بزواج كهذا ؟ . . زواج فيه تدنيس لاقدس الروابط البشرية

تلك كانت مخاوف الامبراطور ولـكن بالاس لم ييأس وشرع يجد ويسعى حتى ألقى فى روع أعضاء مجلس الشيوخ ان كلوديوس راغب اشد الرغبة فى التزوج من اجريبين.وعندئذ وقع ما لم يكن فى الحسبان

خشي مجلس الشيوخ استثارة غضب الامبراطور ، وبدل أن يصرفه عن هذا الزواج تملقه ودفعه اليه دفعا ، ثم أصدر قانونا يبيح الزواج

من بنات الاخ وبنات الاخت ، فاغتبط كلوديوس ايما اغتباط وتظاهر بالخضوع مكرها لارادة المجلس فهللت له روما ورحبت بزوجه الجديدة وتطلعت ابصار الشعب الى حفلات العرس الرائعة وما تقترن به عادة من ولائم وافراح ومباريات رياضية ومصارعات هائلة

والغريب ان الاسر الكبيرة نفسها اطمأنت الى هذا الزواج بدل ان تنفر منه ، وذكرت المجد العظيم الذى أحرزه البطل جرمانيكوس والد اجريبين ، فسرت وازدهت وخيل اليها ان ذكرى ذلك البطل ستنفخ فى الامبراطورية روحا يجددها ويحييها ويرد اليها عزها القديم

وهكذا انتصر بالاس واقترنت اجريبين بالامبراطور كلوديوس

- ٣ -

كان دوميسيوس « نيرون » ابن اجريبين يهيم على وجهه فى أبهاء قصره تارة ، وفى الحدائق أخرى ، مكتئب المحيا متضجر النفس شاعراً بالوحدة أبلغ شعور وأوفره

والحق ان احساسه بالعزلة قد تضاعف منذ ان اقترنت والدته بالامبراطور . ولقد كان بالاس يسوق اليه كل يوم طوائف مختلفة من الفرسان والقناصل وأعضاء مجلس الشيوخ يجثون أمامه ويدفعون اليه العرائض ويبتهلون الى ذاته الكريمة ان يشفع لهم عندوالدته كى تقربهم اليها وترعاهم بعنايتها وتستمع لشكاواهم

وكان الفتى ينظر الى هؤلاء الناس من عليائه ، مرحبا بهم ، منتشيا بسلطانه الفجائى عليهم ، مستغربا هذا السلطان ، مستعذبا ممارسته ، كأنما هو صاحبه وهو الموحى به

وكانت غرائز والده زوج اجريبين الأول، اهينو بربوس ، تتمثل فيه واضحة جلية من حيث لا يدرى . كان شريراً فى لؤم وغدر ، عنيف الأهواء فى وحشية وغلظة ، قاسى القلب متحجر العاطفة أنانى النزعة حسى الرغبات عابثا مستهتراً يعيش طوع نزواته ولا يكلف نفسه عناء ضبطها أو ارسالها فى حذر وتوسط واعتدال

ولم يكن له فى عزلته غير صديقين من العبيد ، أحدهما حلاق والآخر راقص . وكان الأول يعطره ويطيبه ، والثانى يعلمه فنون الرقص ويروضه على القفز والعدو ويفسد أخلاقه ويسمم عقله بما يقص عليه من حكايات فاضحة ونوادر شائنة وأخبار وحوادث تلهب

المخيلة وتضرم فى البدن نار الشهوة وتجرد الانسان من كل فضيلة وتنزل به الى درك الحيوان وحضيض الفطرة الاولى

وكان دوميسيوس يرهب والدته ويحبها فى وقت واحد . يرهبها لجمالها وجلالها وفيض العظمة المنبعث منها ، ويحبها لعطفها عليه واهتمامها الخفى به والقدرة التى استطاعت بفضلها السيطرة على قيصر !

أجل ، انها لتشارك اليوم قيصر في كل شيء !

السفراء ينحنون امامها ، والبلاط بأسره يمجدها ، ومجلس الشيوخ يخشاها ، ورسمها الباهر يضرب على النقود بجوار رسم قيصر

كل هذه العظمة خلبت لب الفتى وملكت عليه حواسه وأخضعته لوالدته وأشعرته بما فيها من مدخر القوى ، وأقنعته على دهش منه بان فى وسع اجريبين ان تصبح نصف الاهة ، وان تأتى اذا شاءت بأروع ضروب المعجزات

أو ليست هى الحاكمة المطلقة فى روما ، أو ليست هى ملكة المدينة الخالدة ؟

ولكن ما هى المدينة الخالدة وما هى روما ؟

ليس شك فى ان دوميسيوس كان يجهل تاريخ بلاده ويجهل حدود الامبراطورية ويتصور انها امتداد بسيط لحدود قصره . وكان لا يفكر فى الرعايا الأجانب المختلفى الاجناس من أفريقيين وأسبانيين أكثر مما يفكر فى جماعات اليهود أو فى طوائف السريان أو فى شعبة المجوس . وكان اذ يخرج الى شوارع روما يستولى عليه الذهول وهو يبصر الجماهير المتعددة الازياء واللغات ، فيلتفت الى تابعه (أبيستوس) الذى حل بجواره آخر الامر محل الراقص والحلاق ويقول :

— من هؤلاء ؟ أنا لا أفهمهم ، ويخيل الى انهم لا يعرفوننى !

فينحني التابع امامه ثم يقترب منه ويسر فى أذنه :

-- ستعرفك هذه الجماهير عما قريب ، وستكون يوما سيدها .
ولقد تنبأ بذلك لوالدتك عراف مصرى عبقرى . كنت معها ساعة ان استقدمته . وكان ذلك فى ليلة صافية السماء فجلس العراف على الارض وأحاط نفسه بدائرة خطها على التراب ثم رفع بصره وجعل يعد النجوم ثم ابتهل الى آلهته القوية ، ثم أغمض عينيه وقال لأجريبين وهى ترتعد :
« سيؤول العرش الى ولدك ولكنه سوف يقتلك ! »

وعندئذ أشاحت والدتك بوجهها ثم قالت :

« ليقتلنى ولكن ليحكم ! »

هذا ما رأت وسمعت ويقينى انك سوف تملك هذه الامبراطورية يا دوميسيوس !

وكان الفتى كلما سمع هذه القصة ينتفض ويقول :

— الموت خير لى من الفوز بالامبراطورية على انقاض اجريبين !

فيبتسم التابع ويطرق لحظة ثم يدمدم قائلا :

— ليس فى مقدور الانسان تحدى القدر ! سوف تحكم وسوف تنبسط الارض أمامك يملأها العبيد ! سيقربون اليك القرابين ويرفعون اليك أكف الضراعة ويستصرخونك الرحمة كما تستصرخ الآلهة ! واما اعضاء مجلس الشيوخ فلسوف تنحنى رؤوسهم امامك ولسوف تشعر فى بعض اللحظات بأن أمراً منك يكفي لقطع تلك الرؤوس !

وكان دوميسيوس بعد اذ يكر راجعا الى القصر ، يخلو الى نفسه ويفكر فيما سمعه ويطلق لخياله العنان ، ثم يتصور أصدقاءه ، أصدقاءه الجدد الذين جلبهم انيستوس إلى القصر ، وهم يحدقون به ويعظمون شأنه ويغدقون عليه آيات الثناء ، فيكاد يجن غبطة وفرحا . فرحا بأن يعجب الناس به وينظرون اليه كأنهم لم ينظروا قط إلى مخلوق !

وهذا الاعجاب ، هذا الاعجاب المطلق كان غاية حياته وأمنية نفسه

والرغبة العميقة التي ينشدها ويحس أنها قد دانت له ، وأنه قد امتلكها كلما قال له صديق متملق : انه عظيم وانه جميل وانه عبقري

وكان يؤمن ايمانا راسخا بأنه حقا عبقري وأن ذهنه يعلو على بقية الاذهان توقدا وذكاء ، وأن جماله أيضا يضارع عبقريته تفرداً وامتيازاً

والواقع أنه كان متوسط القامة ممتلىء البدن عليه مسحة من الجلال والهيبة . اسمر اللون وضاءه ، وكان شعره مموجا كثيفا ، وعيناه زرقاوين يثقلهما قوس حاجبيه الغزيرين ، أما أنفه فقد كان رومانيا نبيلا ، وأما فمه فقد كان ساخراً متأبياً قاسيا غليظا يتدلى طرفاه في شره ، وتتمثل فيه ومضة من ومضات الرجولة تكسب الوجه طابعا خاصا يلفت الأنظار ويسترعي الاهتمام

وأظهر ما كان يبدو على محياه ذلك القلق الدائم ، والتبدل المستمر وسرعة تحول النظرات ، ونوع غريب من الحيرة يدل على ظمأ النفس واضطرابها وتوزع احساساتها وعواطفها

ولم يكن دوميسيوس قد تلقى العلم على يد أستاذ معين بل كان يفكر بسليقته ويحس ويشعر وفق أحكام فطرته ، ولا يجيد غير بعض أساليب البلاغة الكلامية استمدها من أحاديث رفاقه المتزلفين المتملقين وكانت عاطفته أقوى من عقله ، وشعوره أكثر حدة من تفكيره وشخصيته تغلب عليها الغرائز الفاسدة المنحدرة اليه من أبيه يلطفها شيء من السخاء والكرم والاعجاب بالفضيلة ، انحدر اليه من سلالة والدته

وصفوة القول أنه كان مخلوقا يتبع نداء اللذة ، وكانت اللذة هي قانونه الأوحد ، وأغلب الظن أن لو كانت الظروف قد أتاحت له الحياة في بيئة أخرى لكان احساسه الفني قد تهذب وذوقه قد تلطف ، ولنما في نفسه بعض ملكات الفن . ذلك لأنه كان يهيم حبا بالشعر والموسيقى وفن النحت ، وكان يقضي ساعات فراغه تارة في العزف على القيثارة

وأخرى فى قرض الشعر . ولـكن أحداً لم يرشده إلى أسرار الفن فنشأ كما ينشأ النبات الوحشى ، وانطلق يفخر بنبوغ لا قواعد له ولا أحكام ولا حدود ولا أى مثل أعلى

ولقد أدركت أجريبين بثاقب نظرها أن رجلا كهذا لا يمكن أن يصلح امبراطوراً ، فجاءته بالفيلسوف (سنيكا) وبذلت قصاراها فى انهاض عقله وصقل عواطفه واعداده للمنصب العظيم على يد ذلك الفيلسوف

فهل وفقت أجريبين فى اختيارها ، وهل أفلح سنيكا فى أن يجعل من هذا الفتى عابد اللذة رجل تفـكير وارادة وعمل ؟ . .

- ٤ -

كان سنيكا الفيلسوف قد اتهم بجريمة الزنا ونفى الى كورسيكا ، فاستقدمته الامبراطورة وعهدت اليه فى تأديب ابنها كى تلفت انظار الشعب الى دوميسيوس وتمهد لحكمه ، وتوليه منذ حداثته ثقة الطبقة المتعلمة ، وكان مجلس الشيوخ يعتقد ان سنيكا قد اتهم ظلما ويعجب بفضيلته وكريم سجاياه وحبه التقشف وغرامه بالبساطة ، فبدا لأحريبين ان عودة الفيلسوف الى ارض الوطن ستقابل من الجميع بالترحاب وان تعيينه أستاذاً لدوميسيوس لابد ان يقع موقع الرضى من أعضاء ذلك المجلس الموقر

وكانت احريبين فى سعيها لضمان الحكم لابنها ، ترمى فى نفس الوقت الى الحصول على تأييد الحزب الناصر للامبراطورية ، وسحق جماعة الجمهوريين ، ولذا اختارت سنيكا طمعا فى نفوذه لدى الفريق الاول وما له من عظيم الاحترام لدى الفريق الثانى ، ثم استجمعت قواها ونظمت الدعوة للامبراطورية بين صفوف الحامية المرابطة فى ثكنات روما . ولكى تطمئن الى إخلاص هذه الحامية استبعدت بعض قوادها الذين كانوا قد اشتهروا بميلهم الى ميسالين ، وأحلت محلهم رجلا واحداً عرف بولائه الشديد لها وهو القائد بوروس افرانيوس

وكان ان ابتهج دومسيوس الفتى عند ما علم ان كاتبا مشهوراً وفيلسوفا ذائع الصيت سيتولى أمر تربيته وتعليمه فاحب ان يراه وعقد العزم على احترامه ، وخيل اليه ان ذلك العبقرى لا بد ان يفهمه ويقدر عبقريته وينزله من نفسه أرفع منزلة

وفى غضون ذلك تلقى دوميسيوس من والدته النبيلة هدية أخرى قرت بها عيناه ، وهـــذه الهدية فتاة فى السابعة من عمرها رقيقة متواضعة صافية المحيا كسماء روما أيام الربيع

تلك كانت اوكتافيا ابنة كلوديوس ، اختارتها اجريبين خطيبة لابنها وهو لما يزل فى الثانية عشرة من عمره ، وهكذا اشعرته بتمام رجولته وقربته جهدها من قيصر واحكمت الصلة بينه وبين العرش

وشرع الفيلسوف سنيكا فى تعرف شخصية تلميذه ، ولم يكد يجلس اليه ويتصل به ويستمع لحديثه ، حتى هاله ما انطبع عليـه الفتى من غرور وزهو وخيلاء ، فحاول أن يهذب نفسه ويثقف عقله ويروضه على البساطة والتواضع وصدق العاطفة ونبل الوجدان وقوة الارادة ، ولـكنه اصطدم بتلك الخيلاء المتأصلة وذلك الاعتداد الجنونى فـكر راجعا وقد حاق به الفشل ، وبدلا من ان يستأصل جراثيم الفساد من نفس تلميذه ، ابقى عليها وخطر له أن يستخدمها لتحقيق المهمة التى عهد اليه بها

فجعل يتملقه ، واسرف فى هذا التملق اسرافا شائنا ، ولـكنه كان حسن النية ، يمجد فى تلميذه الشجاعة والـكرم والاباء والشهامة والعدل ليوحى اليه هذه الفضائل ويغريه بها ويحببها اليه . غير أن الفتى ازداد كبرياء وركبه الغرور وبات يعتقد أن الفضائل بأسرها جمعت فى شخصه

وكيف كان يمكنه ألا يكون مغروراً وأنظار الكل متجهة اليه ، وأصـدقاؤه ياوحون له بالمستقبل الزاهر ،



سنيكا

والاشراف يتملقونه ، ورجال الدولة يخطبون وده ، والامبراطورة لا تنفك تقول له :

« ستصبح فى الغد قيصراً » ؟

وكان لايكاد يراهاحتى يشعر بعظمته ، ولا تكاد تبصره حتى تلهب فيه بوعودها البراقه نزعة العرور والكبرياء ، فوالدته كانت تخاطب كبرياءه ،واستاذه أيضا كان يخاطب فيه تلك الكبرياء بعبارات كهذه :

— لو اتيح لك واعتليت العرش يوما . فاعلم انك ستقوم بدور إله ! حياة الشعوب وموتها سيصبحان فى قبضة يدك ! كلمة واحدة منك يمكن ان تقر السلم أو تثير الحرب ! سيحبك الشعب محبة الوالد ولكن سترزح تحت اعباء السلطة لأنك لن تستطيع وأنت تفكر فى سعادة روما ان تفكر فى سعادتك الخاصة . هذا هو المجد الذى ينتظرك وانه لمجد جدير بالآلهة !

أمثال هذه الالفاظ فعلت فى عقل الفتى فعل السحر ، وأفقدته توازنه ، وضاعفت صلفه وغروره ، وجعلته يوقن بان ارادة أمه لن تقاوم ، وان اجريبين ، اجريبين المحبوبة ، فى كفاحها المطرد نحو الغاية التى تنشدها ، لا يمكن أن تضعف أو تتراجع أو تصاب بالفشل

لازمت عقل دوميسيوس فكرة ثابتة وهو انه سيصبح فى الغد امبراطوراً . ولكن كيف ؟ . أهذا ممكن وهناك بريتانيكوس ابن الامبراطور ، ذلك المخلوق المريض البائس المنطوى على نفسه العريق في النبل والأقرب منه الى العرش ؟

والحق ان هـذا الخطر كان يتهدده ، وكان يلوح أيضا لاجريبين فيعكر عليها صفوها ويهدم أحلامها وينذرها بخيبة الأمل وسوء العقبى

كانت تكره بريتانيكوس أشد الكره وتعلم أن الاشراف اعداءها الذين ينقمون عليها استئثارها بالسلطة قد التفوا حول هذا الفتى وعلى رأسهم عدوها اللدود نرسيس

فماذا يحدث لو استخدم نرسيس ، بريتانيكوس ، لمصلحته ،

وأرشده الى حقه ، وأيقظ فيه روح العمل والجهاد ؟

ان الصرح إذن ليتقوض ، ودوميسيوس يقتل أو ينفى ، والامبراطورية يستحوذ عليها الجبار نرسيس !

أجل . يجب أن يتبني الامبراطور ، دوميسيوس ! يجب أن يعلن فى الملأ انه ابنه البكر ! يجب أن يصارح الشعب بأن الحكم سيؤول اليه وحده !

تلك هى الواسطة ، واسطة تحقيق الغاية العظيمة ، واليها ينبغى أن تصوب الأنظار وتسدد الجهود !

***

وشاء القدر الذى كان يحالف اجريبين فى تلك الحقبة من حياتها ، أن يكون كلوديوس من أولئك الرجال الذين لا تخالج قلوبهم أية عاطفة أبوية ، والذين باعدت الشهوات بينهم وبين أقرب الناس اليهم ، وابتلتهم بشبه انانية جنائية ختمت على أبصارهم وعقولهم

ولقد حدث فى تلك الفترة أن امعان الامبراطور فى طلب اللذائذ الحسية واغراقه فيها وانكبابه عليها وحرصه على قضاء الحياة فى نعيم دائم ومتعة لا تنفك تتجدد ، كل اولئك ضاعف تبلد عقله واعتلال جسمه وضعف ارادته فأصبح اسرع انقياداً من ذى قبل ، يخشى التفكير ، ويتبرم بحمل المسئوليات ، ويكل شئون الدولة لغيره ، ولا ينزع الى غير الراحة والبلادة والتمرغ فى حمأة الشهوات

ولحظ بالاس هذا التطور فى نفس كلوديوس فطمأن اجريبين ووعدها خيراً ثم اتجه ذات صباح صوب القصر الامبراطورى ودخل على قيصر وبعد ان بالغ فى تحيته اتخذ له مجلسا بالقرب منه وقال :

— ان بريتانيكوس ما يزال فتى يافعا أيها السيد . وهو الى ذلك مريض ، وليس من الحكمة أن نعقد عليه الآمال الكبيرة . فهل تريد يا قيصر بعد إذ جددت عظمة روما أن يسيطر دخيل على عقل ولدك فيتولى الحكم بواسطته ويغرق البلاد فى الثورات والدماء ؟

الواجب أن تبحث لك عن خلف جدير بك . ولقد ضرب لك قيصر اغسطس أحسن الأمثال عند ما تبنى طيبريوس . وعندى أنه من حق البلاد عليك أن تتبنى دوميسيوس وتمنحه العرش من بعدك وهكذا تؤدى واجبك نحو الوطن ، وتعرب عن حبك للامبراطورة ، أفضل وأكمل امرأة فى روما . ان القواد والفرسان والاشراف وأعضاء مجلس الشيوخ ، كلهم يتضرعون اليك ويطلبون تحقيق هذه الرغبة . ففكر يا قيصر فى مستقبل بلادك وضع مصلحة الوطن فوق نداء الابوة !

وكان بالاس يتكلم وهو يعلم حق العلم ان مجلس الشيوخ لن يعارض ، وان أعضاء هذا المجلس الموقر يتهافتون على اجابة رغبات اجريبين ، وانهم كما ارتضوا بالأمس أن تكون زوجة قيصر ، فلا بد أن يوافقوا اليوم على جعل ابنها دوميسيوس وريثا للعرش

وانتهى الكفاح بالنصر ، وتبنى الامبراطور ابن اجريبين ، وصدر قانون اطلق بموجبه اسم (نيرون) على الفتى دوميسيوس

ومنحت بموجبه اجريبين لقب اوغسطا . وشوهدت عندئذ ظاهرة غريبة وهى أن الشعب بأسره طفق يمتدح قيصر ويطرى مناقب نيرون ويعلى من شأن الامبراطورة . واما بريتانيكوس فاعرض عنه الجميع وخلفوه فى عزلته ، فتظاهرت اجريبين بالعطف عليه وكانت تقبله كلما ابصرته وتستفسر عن صحته وتحوطه بشتى مظاهر الرعاية ، ولكن الغلام كان ينفر منها ويتبرم بها ، فغضبت عليه ورمته بالجحود ونكران الجميل ، وذهبت تقول انه قاسى القلب وضيع النفس لا يستحق حنانا أو رحمة أو حبا

وكانت تعتقد انه أبله ساذج غبى ، ولكن بريتانيكوس كان في الحقيقة غلاما حذراً متحفزاً أنضجته التجارب . ولقد بدرت منه هذه العبارة بعد ان قبلته اجريبين ذات يوم :

— انها تقبلنى ولو استطاعت لعضتنى وأدمت بأسنانها وجهى !

هذه العبارة بلغت مسامع الامبراطورة وبقيت فى ذهنها وكشفت لها عن دخيلة نفس الغلام وزادتها حقداً عليه وكراهية له

ولقد اتفق مرة أخرى ان التقى نيرون بريتانيكوس وحياه؛ فما كان من الغلام الا ان ابتسم ابتسامة ازدراء وسخر ، ورد التحية بقوله :

— سلام يا ابن العظيم اهينوبربوس !

فوقعت التحية وقع الصاعقة على رأس نيرون،وشعر ان الغلام يعيره باسم والده مذكراً اياه بأصله الوضيع ، وبالرجل ذى الغرائز المروعة الذى انحدر منه ، فشحب وجه نيرون وغلى مرجل الحنق فى صدره واتجه من فوره صوب والدته وردد عليها ما سمع

فاستشاطت غضبا وصاحت بزوجها الامبراطور مقطبة الجبهة جاحظة العينين :

— هذا ما يسره اليه رفاق السوء . انه يتمرد عليك ، ينكر وصيتك ، يحتقر تدابيرك ، لا يقبل ان يكون نيرون ابنك البكر ووريثك . أفلم تفهم بعد ؟ . . ان أنصار بريتانيكوس يدبرون مؤامرتهم الشائنة منذ اليوم . . يريدون الايقاع بك والتخلص منك ومنى ومن نيرون وتنصيب هذا الغلام المريض على عرش روما

ثم صمتت لحظة وهى تلهث ثم أردفت فى خبث :

— ولو كان هذا الغلام من صلبك حقا لرضيت بالامر وأذعنت لهم عن طيبة خاطر . .

فاضطرب كلوديوس وقال :

— كيف ؟ . . بريتانيكوس ، ليس ابنى ؟ . .

فضمت اجريبين أهدابها الطويلة واستطردت قائلة :

— ابنك ؟ أواثق أنت ؟ . . هل رأيته يوم ولد . . من ذا الذى يضمن لك انه ليس ابنا لميسالين ؟ . . لقد اهتديت الى هذا السر منذ سنوات ولكنى أخفيه عنك رحمة بك ومن فرط حبى واخلاصى لك . .

ان ميسالين وضعت طفلة أنثى ، ورغبة منها فى أن تعقب لك خلفا قتلت ابنتها ، ثم قدمت لك بدلا منها طفلا من أبناء العبيد ! . . هذه هى الحقيقة ، وهـذا العبد الدخيل هو الذى يطمح اليوم الى الجلوس حيث تجلس الآن !

فاقشعر بدن كلوديوس ، وانتفض بدنه رعباً وما كان منه الا ان أصدر بعض أحكام بالموت انصبت فجأة على رؤوس عدد من الكبراء عرفوا باتصالهم بولده

وحاولت اجريبين ان تصيب عدوها اللدود نرسيس ولكن قيصر لم يجرؤ فكظمت غيظها واصطنعت مظاهر الارتياح والرضا ، وجعلت تراقب بريتانيكوس وتتحين الفرص

ومنذ ذلك اليوم استفاضت العزلة حول الغلام المريض ، واشتد مرضه ، وظهرت عليه أعراض الصرع فكان يصاب بنوبات عنيفة طارئة فيسقط على الارض ويملأ الزبد شدقيه ، وكان كل من يراه يتنبأ بموته العاجل

أما نيرون فعلا نجمه وأغدقت عليه الرتب ومنح لقب قنصل ، ثم أسندت اليه قيادة الجيوش المرابطة عند أسوار روما ، ثم وزعت باسمه النقود على الشعب الذى كان يهتف :

ـــ المجد لنيرون الامبراطور ! . . المجد لنيرون قيصر . . المجد لنيرون الاله . .

وأقيمت المباريات الرياضية فى الملاعب العامة ، ونظمت حفلات المصارعة ، وشوهد نيرون فى الشرفة الامبراطورية وعلى رأسه شبه تاج صغير مرصع بالذهب . وكان يرشق الجماهير بنظرات ملؤها العظمة والنشوة ، وقد جلس خلفه بريتانيكوس أصفر الوجه ضامر التقاطيع يحاول جهده اخفاء شخصه الضئيل وثوبه العاطل البسيط الشبيه بثياب الاطفال

وفى غضون ذلك العـام اصيبت البلاد بكوارث هائلة أقضت

مضاجع الرومانيين وحرمتهم لذة الرقاد وخنقت فى نفوس المرح والسرور

زلزلت الارض فى يوم مشئوم ، ودفنت جموع كبيرة تحت الانقاض ثم أمحلت الارض وقل حصاد القمح وفشا الجوع وانتشرت الامراض واوشك جمهور ثائر من الشعب أن يوقع بقيصر لولا ان تداركه الحرس بعد معركة حامية استغرقت بضع ساعات

وكانت الساعة عصيبة : الشعب هائج والثورة على الابواب . ولم ينقذ البلاد وقيصر غير أبناء الابطال الرومانيين الذين تغلبوا فى الشرق على جماعات الارمن والبارت فاستطاعوا رد هيبة روما اليها ووطدوا من جديد صرح تلك الامبراطورية المتداعية

وكانت هذه اولى الحوادث الفاجعة التى مرت بحياة نيرون والتى بدأت تعلمه كيف ينظر الى الشعب وكيف يفهم ويقدر الرومان وكيف يتعلم فن السياسة وأصول الحكم

- ٥ -

كانت الحياة فى روما وفى قصر كلوديوس اسوأ مثل يمكن ان يقدم لانسان . وكانت هـذه الحياة الموزعة بين انتهـاب اللذات وارتكاب الجرائم هى كل ماتقع عليه عينا نيرون . فالامبراطور كان لا يرى إلا فى وسط المآدب وبين الغانيات يرقصن أمامه وينثرن عليه الازهار وهو غارق فى شبه سبات عميق لا يستفيق منه الا ليأكل ويشرب ويتجشأ كحيوان . وأما الاشراف والقواد والاتباع فكانوا يقتدون بسيدهم ويمالئونه على اشباع غرائزه ويتبارى أذكاهم وأعظمهم فى مصانعتـه استجداء لعطفه ومرضاة له

وكانت اجريبين هى وحدها المتحفظة ، تسرح الطرف فى المدعوين مالـكة قياد نفسها ممتنعة عن تعاطى الخمر ، مسجلة فى ذهنها كل ما يقع حولها وما تنطق به العيون وتلهـج به الشفاه

وعلى الرغم من هذه الفضيلة التى كانت تشع منها وتجبر الاشراف على الانحناء امامها ، فقد كان نيرون لا يثق بها ولا يخدع بمظهرها

كان نيرون يدرك ان هـذه المرأة المرهوبة الجانب ، هـذه المرأة الجليلة الفاضلة الوقور ، تخدع زوجها مع بالاس ولا تشعر فى الواقع بأى وازع من خلق أو ضمير

فسلوك والدته وسلوك الامبراطور وسلوك أشراف روما وسراتها فى تلك المآدب الحافلة باللذات ، كل ذلك أحدث فى نفس الشاب أبلغ تأثير وطبع نفسه بالطابع الذى كان يخشاه الفيلسوف سنيكا

ولم يكن فى وسع الفيلسوف أن يحول بين تلميذه وبين الاشتراك

فى تلك المآدب أو أن يعلن السخط على أخلاق رب القصر أو أن يزين لنيرون فضائل الاعتدال والعفة

كان يحاول تهذيبه بغرس مبادىء الفلاسفة الرواقيين فى نفسه فيقول له إن روح الانسان نفخة من روح الآلهة وان راحة النفس من راحة الضمير وان العاقل هو الذى يكبح غرائزه ويسودها. ولكن نيرون وقد استطاب الحياة المستهترة الخليعة وانصرف الى التمتع الجنونى بمختلف الرذائل، كان يخدع استاذه فلا يكاد يبصره حتى يردد بعض الحكم والآيات الفلسفية، فاذا ما خلا الى نفسه، تمرغ فى الحمأة الرومانية غير حافل

تلك كانت ثمرة تعاليم سنيكا : النفاق !

ولقد أحس الفيلسوف على مر الأيام أن تلميذه مفلت من يده، ان هو لم يسرع ويجتذبه اليه بتملق أقوى غريزة فيه ألا وهى حب الظهور فانطلق يصوغ له الخطب الرنانة والقصائد العصماء. وكان نيرون يستظهرها ثم يدعو الاشراف والقواد ويلقى على مسامعهم تلك الخطب والقصائد مبرزاً معانيها ممثلا أعراضها فى حركات واشارات ولفتات تدل أبلغ الدلالة على ما طبع عليه من ميل خارق الى التمثيل والتهريج

كان يضحك تارة ثم يبكى، يرفع الصوت ثم يخفضه، يرسل الصرخة ثم يكبحها، والأنظار متجهة اليه عالقة بشفتيه، وهو مطل على جمهوره متوهم أنه والآلهة سواء

ولقد انتهى به الأمر الى أن بات يعتقد أن تلك الخطب والقصائد من بنات خياله هو، وأن من واجب الناس التهليل له، وأنها نعمة من النعم يسبغها على البلاط وأهله كلما تفضل وألقى خطبة أو أنشد قصيداً

وكان نيرون وهو يتدرب على التمثيل والالقاء، يتأهب للقيام بدور الامبراطور متى جاءت الساعة وانفسح الطريق وانحنت الرؤوس وأصبح العالم بأسره مسرحا له !

* * *

ولما بلغ نيرون السادسة عشرة زوجوه باوكتافيا ، ذلك الزواج السياسى الذى أرادته اجريبين لتوثق الصلة بين ابنها وبين العرش . ومع ذلك فقد كان هذا الزواج يرمى فى نظرها الى غرض آخر من الخطورة بمكان عظيم

كانت تريد أن تشارك ابنها السلطة ، وأن تتولى هى الحكم بدلا منه ، وأن تراه زوج امرأة ضعيفة لا تنازعها الملك ولا تحاول السيطرة على عقل الشاب

ولقد كانت فوق هذا تخشى نيرون نفسه وتوجس خيفة من حبه الجاه والسلطان ، ولا ترتاح لذلك الاسلوب الذى اتبعه سنيكا فى تربيته واعداده للمنصب المنتظر

ولهذه الأسباب مجتمعة آثرت أن تزوجه لتشغله بامرأة طائعة لها وتصرفه عن التفكير فى حيازة سلطة سابقة لأوانها

وعصف الطمع بلب اجريبين وتاقت الى الانفراد بالحكم وعز عليها أن يكون نيرون فى قبضة يدها وكذلك امرأته اوكتافيا ، ثم تكون هى خاضعة فى تدابيرها لرغبات زوجها كلوديوس الذى لا يريد ان يفارقها ولا يريد ان يموت !

أحست أن لا قبل لها باحتمال هذه الحياة ، وازداد خوفها من دسائس نرسيس وفكرت فى التخلص النهائي منه كما نصح لها عشيقها بالاس . ولكنها احجمت فى هذه المرة أيضا وبدا لها ألا تستعجل الحوادث وألا تعترض مشيئة القدر الذى اعتاد أن يخدمها

وفى خلال ذلك كان نيرون قد اقتحم مجلس الشيوخ وفرض على أعضائه شخصيته وغمرهم بخطبه وسحرهم ببلاغته وأثار إعجابهم بدفاعه الحار عن المدن الرومانية البائسة التى هدمها الزلزال ودمرتها الحرائق .

كان يطالب باعفاء سكان تلك المدن من دفع الضرائب ويدعو

لتحرير بعض شعوب الامبراطورية وينصب نفسه محاميا عن الضعفاء ونصيراً لكل بائس محروم .

والغريب فيه أنه كان يبسط ذراعيه أمام أعضاء المجلس ويصيح ويهدر ويمثل وهو لايؤمن بكلمة واحدة مما يقول ، مزهواً بنفسه معتزاً بمجده منتشيا بكبريائه فخوراً بما أحدثه فى هيئة المجلس الموقر من عظيم التأثير .

- ٦ -

كان الصراع على أشده بين نرسيس واجريبين . وكان رواد القصر الامبراطورى يشعرون بما بين القوتين من تنافر وتطاحن وبغضاء .
وكانوا يقولون لم لا يتحد الخصمان وأى دافع يدفع بنرسيس لمناصبة الامبراطورة العداء بينا فى مقدوره أن يستميلها اليه ويشاركها فى الحكم بما له من ذكاء وجاه ونفوذ

ولكن اجريبين كانت تدرك السر فى تمرد نرسيس وانتقاضه عليها وتحديه الصارخ لها . كانت تفهم حق الفهم ان كبرياء ذلك الرجل تضارع كبرياءها وارادته تماثل ارادتها وانه يؤثر الموت على أن يشاركه فى الحكم أى مخلوق

ولقد كان نرسيس فى يوم من الايام أحد عشاقها فلما أشعرته بوضاعة أصله وذكرته بانه كان عبداً ثم تحرر وانها تنازلت فرضيت بحبه ، حقد عليها ولم يغفر لها ، وجعل يكافح ويجاهد ليجمع ثروة كبيرة يعوض بها ذلك النقص الذى كان يعذبه ويملأ صدره غيرة وحسداً وجنونا

وكان مجلس الشيوخ يخشاه ، وأشراف الامبراطورية يعجبون باناقته وسخائه ومختلف مظاهر الترف التى تكتنف حياته وتخلع عليه حلة رائعة من الرواء والنبل

فهذا الوصولى الجبار كان لا يطيق رؤية اجريبين متحكمة فى البلاد لأن فى دمها جزءاً من دم القياصرة ، ويرى نفسه مقصيا عن الحكم

لان فى دمه جزءاً من دم العبيد . لذلك أبغضها وشرع يترقب الفرص للقضاء عليها

وحدث ان أخت كلوديوس الاميرة دوميسيا ليبيدا مالت الى نيرون وعشقته وكادت تخضعه لتأثيرها فثارت ثورة اجريبين مخافة ان يفلت ابنها منها واتهمت الاميرة بممارسة السحر وما زالت بالامبراطور توغر صدره حقداً عليها حتى أمر باعدامها فخيل عندئذ لنرسيس ان فى وسعه أن يؤلب الاشراف على اجريبين ويثير سخط بريتانيكوس عليها ويدفعه لتدبير مؤامرة تنقذ الامبراطورية منها فذهب اليه فى عصر يوم عيد ودخل عليه وكان فى مخدعه جمع من أصدقائه ، وقال له فى لهجة متأبية مستنكرة تختلج صدقا واخلاصا :

ـــ أيها الغلام المنبوذ ، يا صاحب العرش الأصيل ، حتام تصبر على أولئك الذين جردوك من حقك ومجدك ومتى تخرج من عزلتك وصمتك وتقر الحق فى نصابه وتأخذ بالثأر ؟ .. انزوجة قيصر وابنه المزعوم ومن ينتمى اليهما من الاصدقاء والاتباع ، كل أولئك أعداؤك . فتشجع وأنزل بهم عقابك ، واذا شئت ان تعاقبنى أنا لأنى كنت السبب فى قتل والدتك ميسالين ، فاقتلنى ، اذ الموت خير لى من أن أراك تحيا على هذه الصورة وأرى الدخلاء يملكون بدلا منك . . .

فشاع الأسى فى عينى الغلام وأوشك أن يتحرك بل لقد شرع بالفعل فى استشارة أصفيائه توطئة للعمل . ولكن القدر شاء ان يخدم اجريبين فأصيب نرسيس بمرض عضال أقعده عن مواصلة سعيه واضطره الى مغادرة روما والذهاب الى مدينة سنيوسا لتبديل الهواء ، وحينئذ أدركت اجريبين ان جهود نرسيس آتت بعض الثمرات ، وان الامبراطور بدأ يعطف على ابنه بريتانيكوس ويهتم به ويكثر من زيارته ويوليه رعاية خاصة ، فاضطربت وأحست الخطر وأعملت الفكر ، ثم قر قرارها على التخلص من الامبراطور قبل ان يشفى نرسيس ويعود فجأة الى روما

وعقدت العزم على استخدام السم للاجهاز على حياة كلوديوس .
ورأت أن يكون السم صاعقا لا يترك أثراً ولا يدع للامبراطور مجالا للشك أو للثورة والانتقام

وكان رجال الشرطة قد أودعوا سجن روما امرأة تدعى لوكوست اشتهرت بالسحر والعرافة وتحضير العقاقير وصنع السموم ، فأرسلت أجريبين فى طلبها ثم أطلقت سراحها وطلبت اليها تجهيز نوع من السم صاعق لايثير الشبهات ، فاجابتها المرأة إلى سؤلها وأعطتها مسحوقا نباتيا أوصتها بأن ترش منه على بعض أنواع الطعام

وفى ظهر ذلك اليوم عملت اجريبين بوصية لوكوست ، فلم يكد الامبراطور يتناول طعامه حتى شعر بألم شديد فى أمعائه نسبه إلى عسر الهضم

ولكن الألم تضاعف فى المساء واقترن بدوار ، فاستقدم الأشراف كزينوفون الطبيب الاغريقى الذى كانت اجريبين قد اشترته بالمال

وتقدم هذا الطبيب باسما وداعب حلق الامبراطور بريشة صغيرة وجعل كلوديوس يقىء شاعراً ببعض التحسن مغتبطا بعلاج الطبيب متهيئا للعودة إلى المائدة وامتاع نفسه كالعادة بشتى ألوان الطعام والشراب . غير أن الألم عاوده بغتة فأحس كأن أمعاءه تتقطع وكأن يداً قوية تهوى على رأسه بمطارق من حديد ، فحملوه وهو ينتفض ويصرخ ويده ممسكة ببطنه ، ومددوه على فراشه حيث ظل يتقلب ويعوى حتى لفظ النفس الأخير !

واستغرق دور النزع يومين كاملين ، وكانت الامبراطورة فى خلاله تسهر على قرينها وتلاطف وجهه بأناملها وترقب حركات نبضه وتتحسس فى الآونة بعد الأخرى جسمه المتشنج المحموم ، وهو يناضل ويقاوم الموت جهده ويحاول أن يقىء أيضا فلا يستطيع

وكانت إذ تخذلها ارادتها وتساور الشكوك فى مفعول السم ذهنها القلق المتيقظ ، ترفع الأغطية بيدها وتمد أصابعها المرتعشة وتلمس

البطن ، فلا تكاد تشعر به وقد تضخم وتصلب حتى تهدأ وتتراءى على شفتيها ابتسامة لئيمة خفيفة منكرة

وبقيت بجوار فراش كلوديوس حتى تحللت جثته وتصاعدت رائحتها ، وإذ ذاك تركتها وأسرعت تحث الخطى نحو مخدع أبناء ميسالين . وهناك ارتمت على بريتانيكوس ثم قبلته وهى تصيح :

— ولدى ! . ولدى العزيز ! . ما أعظم الشبه بينك وبين والدك وكم أنا أحبك ! . .

ثم تحولت الى اوكتافيا وأختها أنطونيا وقبلتهما أيضا ثم عادت إلى الغلام وجعلت تردد قولها :

— كم أنا أحبك ! كأنك من لحمى ودمى ! . اعتمد على ولا تخش المستقبل . لقد انتزع الموت والدك منا ولكنى بجوارك وقلبى لن ينصرف عنك وسوف أحلك فى الامبراطورية المحل الخليق بك !

وبعد أن أتمت تمثيل دورها وانصرفت من مخدع الأطفال أمرت أحد الحراس من أتباعها بحراسة أبواب المخدع ومراقبته ومنع كل غريب من الدنو منه ومنع الصبيان من مغادرته والا استهدف للموت

هذا ما وقع فى القصر وأما فى مجلس الشيوخ فقد اجتمع الاعضاء وقاموا بتأدية صلاة الشكر للاله جوبيتير على ما أحدثه من تحسن فى صحة الامبراطور ، ثم أمروا القناصل والكهنة بتقديم القرابين للالهة ، ثم حاولوا كسب الوقت ليهيئوا أذهان الشعب لقبول النبأ المروع ويستعدوا هم وكبار رجال الحامية الرومانية للمناداة بنيرون امبراطوراً على الرومان

وفى ظهر اليوم التالى بينا كان الشعب متجمهراً أمام شرفات القصر يتوقع ظهور الامبراطور لتحيته ، فتحت الأبواب وبدل أن يظهر كلوديوس بجسمه الضخم وعينيه التعبتين ورأسه المتأرجح ، لاح نيرون على المحفة مسبل الأجفان متصلب التقاطيع من فرط التأثر ،

يكبح ما استطاع عوامل الدهش والفرح والكبر التى استحوذت عليه ولما توسط الشعب لغط كثير منه بقولهم :

— قيصر قد مات ! قيصر قد مات !

وعندئذ تحركت الجيوش التى رابطت على الابواب واستلت سيوفها ورفعت رماحها وصرخت بصوت واحد رددته جماهير الشعب :

— ليعش نيرون ! ليعش نيرون الامبراطور ! . .

- ٧ -

فازت اجريبين الفوز كله ولكنها لم تطمئن فارسلت الى نرسيس من أمره بالانتحار ، فانتحر الرجل وفضل أن يموت بيده كريما عزيزاً من أن يقضى نحبه بيد الجلاد

وشوهدت فى نفس اليوم ظاهرة غريبة ، وهى أن الامبراطور نيرون بكى على نرسيس وابنه تأبينا رائعا ورثى فيه بطلا من أبطال الامبراطورية ، فدهش الأشراف واستغربوا من قيصر هذا التصرف ولكن نيرون كان قد بدأ يشعر بسلطان والدته ، وكان يبكى فى نرسيس الرجل الوحيد الذى كان يمكن أن يركن اليه ويعتمد عليه فى وضع حد لمطامع اجريبين ...

والحق ان نيرون استفاق بغتة وتفتحت بصيرته لحظة وأدرك من فوره ان اجريبين هى كل شىء وأنه لن يكون شيئا الا بها . وكان قد أبطرته النعمة المفاجئة فكظم غيظه وغض الطرف وشرع يبحث عن أصدقاء يعاونونه فى كبح جماح والدته فوجد أولئك الأصدقاء فى شخصى بوروس والفيلسوف سنيكا

وتبدلت نفس نيرون شيئا فشيئا ، وأحس أنه انتقل فجأة من الأمل الى الحقيقة ومن الخوف الى الجرأة ومن القلق الى الراحة والاستقرار

لا عقبات اليوم تعترضه ، ولا حائل بينه وبين شهواته ، ولا قوة على الأرض تفوق قوته . فهو سيد العالم ، وحقه غير محدود ، وارادته مقدسة

أما واجباته . تلك الواجبات الثقيلة المرهقة . فسيعرف كيف يفكر فيها . ولكن فيما بعد !

وكان أول عمل قام به الاشادة بعظمة الامبراطور الراحل ، فأوصى أستاده بوضع خطبة تزخر بأبدع المعانى وأجمل الألفاظ ، ثم أقام حفلة تأبين ملكية نهض فيها والقى الخطبة فى صوت جهير



نيرون

وحركات متزنة واشارات تمثيلية بليغة ، ثم دعا الشعب لرفع مستوى كلوديوس الى مصاف الآلهة

وأعجب الشعب ببلاغة الامبراطور ، وأدرك أناس منه أن الخطبة من وضع سنيكا ، ولكن أغلبية الجمهور تجاوزت عن اسراف نيرون

فى مدح كاوديوس واعتبرت ذلك دليلا على سمو النفس وكرم الخلال وتوقعت أن يقوم الامبراطور الشاب بأعمال جليلة وأن يرد الى روما سابق مجدها

والواقع أن الفوضى كانت سائدة ، وحبل الأمن كان مضطربا ، ومجلس الشيوخ أداة ولعبة ، وجباة الضرائب يسرقون ، والقوانين محتقرة والمحاسيب والاتباع يعيثون فى البلاد فسادا ويلقون الرعب فى نفوس العامة

وكان سنيكا يعرف كل هذا ولا ينفك يقول لنيرون :

— يجب أن تجدد عصر قيصر اغسطس ! يجب أن يمهد عهدك للبلاد طريق السعادة !

وكان نيرون فى مستهل عهده يرغب رغبـــة صادرة من أعماق شبابه فى أن يكون منقذ الامبراطورية

كان يقول : « اذا كانت الفضيلة تمكننى من الفوز باعجاب العالم واخضاع الامم والشعوب لسلطانى فلماذا لا أكون فاضلا ولماذا لا تكون الفضيلة مثلى الاعلى ؟ »

وليس شك فى أن نيرون كان فى تلك الحقبة من حياته متأثراً بحب الشعب له وتعلقه به وروعة استقباله له ، فأراد أن يظهر عرفانه بالجميل وأن يكون عند حسن ظن شعبه وأستاذه به

ويخطىء المؤرخون الذين يعتقدون أن نيرون كان فى تلك الفترة رجلا دجالا منافقا ، اذ الحقيقة أن الشعور الطيب كان يملأ نفسه والنية الحسنة كانت ماثلة فى آرائه وأعماله وتصرفاته ، حتى أنه وقد اضطر يوما الى توقيع حكم بالاعدام على أحد رعاياه صرخ قائلا : « ليتنى ما تعلمت الكتابة ! »

ومن أبلغ الأدلة على توافر حسن نيته فى مطلع عهده ، أنه عندما التى خطابه الأول فى مجلس الشيوخ صارح المجلس بأنه يستمد منه السلطة ويحكم بواسطته فى سبيل مصلحة روما وسعادتها . ولقد

وعد بأن يختار مستشاريه من نخبة الحكماء وصفوة رجال الدولة،والا يخون العهد الذى قطعه على نفسه، وألا يحاول الثأر من خصوم أرادوا به شراً وأراد بهم خيراً وأمنا

ولقد وعد فوق ذلك باحترام السلطة التشريعية والسلطة القضائية وعدم التدخل بين المتنازعين فى قضاياهم الخاصة ، وتطهير الدولة من شوائب المحاباة ، واسناد المناصب الى أربابها ، واحلال القانون محل الهوى ثم تدرج من هذا الى قوله بأن مجلس الشيوخ لم يعد أداة فى يد الامبراطور ، وأن امتيازاته القديمة قد ردت اليه ، وأن ايطاليا وسائر مقاطعات الامبراطورية لا يجب أن تخشى نزوات الحاكم وأهواءه بل عليها أن تؤمن بأن القانون هو سيد الجميع وأن قيصر لن يفرض بعد الآن سلطانه الا على الجيوش فقط

ذلك ما قاله الامبراطور الشاب . ولقد اهتزت روما والعالم الرومانى طربا لهذا الدستور الذى طالما انتظره الشعب وأوشك على اليأس من تحقيقه فى ظل حكم الأباطرة الطغاة . والحق أن قيصر اغسطس نفسه لم يستطع منح شعبه مثل هذا الفرح وهذا الأمن . ولا ريب فى أن وعود نيرون جاءت فوق ماكان يتوقعه أذكياء الرومان الذين لاحظوا خلو الخطاب من ذكر اجريبين والذين أيقنوا أن الامبراطور الشاب يطمح للتفرد بالحكم وانتزاع السلطة من يد الامبراطورة التى أذلت روما وألحقت بأهلها عاراً ما شعروا به أكثر من اليوم !

ولكن ما موقف اجريبين حيال كل هذا ؟ وهل يتصور العقل أن تلك المرأة التى كافحت فى سبيل ابنها ما استطاعت ، ستنحنى أمامه الآن وتوليه السلطة التى يريد ؟ وهل يمكن أن ترضى بغيرها مرشداً له وهل فى مقدورها أن تنزوى فى عقر دارها وتكتفى من الملك باللقب وتحيا تلك الحياة البهيمية الشائنة التى كان يحياها زوجها كلوديوس ؟

الى أية مكائد يمكن أن تلجأ تلك المرأة ، وأية دسائس تلك التى تحيكها فى الظلام ؟

لقد شب نيرون عن الطوق ونما وترعرع واشتد ساعده ، وها هو ذا وقد بلغ السابعة عشرة من عمره يريد أن يحكم ، ويريد أن يضطلع بأعباء الحكم ، ويريد أن يكون السيد الآمر المطاع ، فهل سيكون فى وسعه الظفر بأمنيته والثبات فى وجه والدته والتغلب على ما اتصفت به من عبقرية خارقة فى الخبث والدهاء ؟

أجل ! لا مفر من أن ينشب الصراع بين الوالدة والولد ، بل لقد قام الصراع بالفعل وظهرت بوادره فى بعض أعمال وتصرفات لحظها رجال البلاط وغضوا الطرف عنها مبهوتين مذعورين

فلمن ستكون الغلبة ، ولأى منهما سيعقد لواء النصر ؟ أللمرأة المجربة الجسور التى لم ترهبها الجريمة ولم يروعها القتل ؟ أم للفتى المزهو الغرير اليافع حديث العهد بالسلطان ؟

- ٨ -

لم تقدر اجريبين فى أول الأمر حقيقة الخطر الذى يتهددها ، توهمت أن نصائح الفيلسوف « سنيكا » ونشوة الملك هى التى بدلت شخصية نيرون . وكان يبدو لها أن من المستحيل على ذلك الفتى الذى طالما أحست حبه لها وحنانه عليها واحترامه الشديد لذاتها ، أن يفكر لحظة فى مناوأتها وتحديها توطئة لتجريدها من النفوذ والسلطة

وجال بخاطرها أن نيرون لا بد زاهد فى الملك عما قريب ، وأن شئون الحكم سوف تضجره ، وأنه سيمل تمثيل دور السيد الآمر بعد حين . ولذا فقد آثرت اجريبين الصمت والانتظار واصطناع الهدوء والاطمئنان وعدم الاكتراث

واتفق ذات يوم أن مثل أمام نيرون فى قاعة العرش سفراء من الأرمن ، وكان الامبراطور يتصدر القاعة جالسا على عرشه وخلفه القناصل وبعض القواد وعدد من كبار أعضاء مجلس الشيوخ والفيلسوف سنيكا . وكانت دروع القواد تبرق ، ورماح الجنود تلمع ، ودرجات العرش يحدق بها الاشراف والأتباع ، فجثا السفراء أمام الامبراطور فى خشوع ورهبة ، وعندئذ دخلت اجريبين مصحوبة برجال حاشيتها وعليها غلائل بيضاء ناصعة ، ثم تقدمت فى اتزان وشموخ واتجهت صوب درجات العرش . فسرت رجفة بين أعضاء الشيوخ واستنكروا قدوم الامبراطورة فى مثل تلك الساعة وتدخلها فى شئون الدولة والحاق العار بالبلاد فى نظر الأجانب كما كانت تفعل أيام كلوديوس

وما كادت أبصار سنيكا تقع عليها حتى تقدم خطوة ثم مال الى

قيصر وتمتم بعض كلمات ، فنهض نيرون فى الحال وابتسم ابتسامة كلها عطف ورقة ثم حيي والدته فى احترام ، ثم تناول بلطف ذراعها وعاد بها نحو الباب وهو لا ينفك يخاطبها ويبتسم ثم كر راجعا واتخذ مكانه في جلال ووقار وتؤدة

وهكذا انقذ شرف روما واستطرد الامبراطور عمله

ولم تفاتح اجريبين ابنها بشأن ذلك الحادث قط ، بل كظمت غيظها ، وان كانت شعرت بأنه قد أدلها وأن الحادث أخطر من أن تستطيع التجاوز عنه . ومنذ تلك الساعة تحفزت للنضال وأخذت تشحذ سلاحها فى عزم وصبر وثقة

ولاحت إد داك فى أفق الدولة حوادث شاءت الظروف أن تمتحن بواسطتها مقدرة الامبراطور على الحكم

بلغ الرومان أن جماعات البارتيين قد غزوا ارمينيا منتهزين فرصة وجود امبراطور شاب غير مجرب ، فأحس الرومان أن لو هزمت روما أمام أولئك الغزاة فنفوذها ولا شك يضمحل ومصيرها يصبح نهبا لكل طامح

وتناقل الشعب هذا النبأ ، وخاف الايطاليون أنفسهم أن يغزو البرابرة بلادهم ، وسرى الرعب فى الطبقات العالية نفسها واتجهت الأنظار جميعا صوب نيرون . ما ترى سيفعل ، وأى قائد سيختار لجيشه وأى مسلك سيسلك لدفع هذا الخطر عن البلاد ؟ .

وانقسم الشعب الى فريقين ، متفائل ومتشائم ، وأراد القدر أن ينصر المتفائلين ، فأوعز الى نيرون بأن يولى قيادة الجيش ، البطل كوربولون ، ثم أيقظ بصيرته ، وهداه الى عقد تحالف وثيق بينه وبين بعض أمراء تتاخم بلادهم بلاد البارتيين ، ثم ألهب فيه كبرياءه وضاعف عزمه على الاسراع فى تنظيم جيش كبير لحرب طويلة . فلما أحس البارتيون هذا العزم الجبار كفوا عن القتال وغادروا ارمينيا ، فاستفاقت روما ذات صباح واذا بها تدرك أن نيرون لم ينقذها فحسب

بل توجها أيضا باكليل من الغار

والتف الشعب حول نيرون ، واسترسل مجلس الشيوخ فى تمجيده وأصدر مرسوما يقضى باقامة صلاة الشكر للامبراطور فى مختلف الهياكل ، ومرسوما آخر بدعوة الجماهير لمشاهدة منقذها وهو يدخل روما دخول الفاتح ، ومرسوما ثالثا باقامة تماثيل من ذهب وفضة لنيرون فى هيكل الاله مارس ، وتبديل التقويم وجعل السنة الرومانية تبدأ فى شهر ديسمبر وهو الشهر الذى ولد فيه الامبراطور

وكان نيرون ذكيا فرفض المرسوم الأخير وتظاهر بالبساطة والتواضع ، ولكن النصر كان قد أسكره وشجع الاشراف على الغلو فى تملقه والتبارى فى نيل رضاه

وبات الامبراطور الشاب يعتقد أن الالهة اختارته لخلاص الوطن ، ونسى أو تناسى أن الفضل فى نجاحه يرجع الى نصائح سنيكا وبوروس وارشاداتهما ، بل لقد ذهبت به الكبرياء الى حد الايمان بأن الآلهة منحته عقلا ممتازاً وفكراً متوقداً وعبقرية علوية لا تضارعها عبقرية انسان . وكان يعمل بآراء سنيكا متوهما انها آراؤه هو ، وينفذ رغبات سنيكا واثقاً بأنها رغباته هو ، وكان الاشراف فى غضون ذلك يتزلفون اليه ويتمسحون به ويختمون على بصيرته ويلقون فى روعه أنه هو صاحب الفضل الأكبر فى كل ما تم على يده من معجزات

ولم يكن فى قلب نيرون أى مجال للعواطف فاحتلته عاطفة الكبرياء ثم تطورت فى نفسه واستحالت الى رغبة شديدة فى التمتع

وكانت زوجه اوكتافيا امرأة فى الثالثة عشرة من عمرها ، فتبرم بها واجتواها ، ومال به شبابه المتقد الى النساء المكتملات الناضجات فاضطرب استاذه سنيكا وخشى على تلميذه فتنة المرأة، وحاول أن يصرف عنها بصره ، ولكن نيرون تطلع الى هذه المتعة وهو يشعر أن من حقه بعد طول الجهاد وبعد ما أحرز من فوز ونصر أن يفكر فى

شخصه ويفكر فى سعادته ويحتضن بين ذراعيه القويتين غادة صبية ساحرة .

ولم يستطع سنيكا آخر الأمر الا أن يلبي سؤل الامبراطور ،فاختار له امرأة بديعة الجمال رقيقة تدعى (اكتيه) وأشار عليه من طرف خفى بالاتصال بها على شريطة ألا يعلم أحد بهذه العلاقة،وأن يظل نيرون فى نظر الاشراف والشعب وفيا لزوجه أمينا على عهده خالصا من كل نقيصة بريئا من كل شائبة

- ٩ -

وكانت الغادة اكتيه أول مخلوقة خفق لها حباً فؤاد نيرون هذا الشاب الذى لم يعرف سوى اللذة البدنية المحضة ، انفتحت عيناه بغتة على عالم العاطفة والروح ، فأخلص جهده لأكتيه ، وأحبته حبا جامحا مبرحا عميقا سلب منها العقل والقلب والحواس

ويا ليت اكتيه الساحرة كانت امرأة ذات إرادة قوية ، إذن لاستطاعت تهذيب نفس نيرون وتحريره من كبريائه ، وتطهيره من لوثات الغرور التى أشاعها الملق والنصر فى اطواء نفسه،والتى انحدرت به فى النهاية الى أحط دركات البهيمية

لقد عبدته اكتيه كاله ، واطاعته فى كل شىء ، وأخضعت حياتها لمشيئته . وبدل أن تسحره بقوة خلقها ومضاء عزيمتها ، سحرته بدماثة طبعها وفرط حنانها وشديد اخلاصها وولائها

وكانت الى ذلك امرأة جمعت بين الجمال الرائع . والعفة النسبية ، فلم يعرف عنها أنها أباحت نفسها للعشاق ، أو تهالكت على اللذائذ أو انصرفت كمعظم الرومانيات فى ذلك العهد الى اشباع غرائزها الدنيا

ولقد زعم بعض المؤرخين أنها كانت يهودية ، وزعم آخرون أنها كانت مسيحية ، وعلى كل فعفتها هى التى جذبت نيرون وحببتها اليه

أحبها لأنه وجد فيها ما يناقض أخلاقه وما يتعارض والاخلاق والعادات المتبعة فى بيئته

ويظهر ان سنيكا عند ما اختارها له ، توسم فيها ذلك الخلق

الـكريم ، وأدرك بثاقب نظره ما انطبعت عليه من عفـة ووفاء ، واعتقد أن فى وسعها تغيير شخصية الامبراطور وتوجيهها نحو الخير .
ولـكن سنيكا كان يخشى ثورة اجريبين على هذه المرأة التى حلت محلها فى نفس ابنها ، فداور وتحايل حتى اهتدى الى كهل وقور من تلاميذه يدعى (سيرنيوس) ثم أعلن بالاتفاق معه ان اكتيه عشيقته وانه هو الذى يعولها وينفق عليها

ورضى الـكهل بتمثيل هذا الدور خدمة لأستاذه وخدمة لقيصر، غير ان اجريبين لم تخدع وابتسمت ساخرة من ذلك الفيلسوف الساذج القليل الخبرة بعقول النساء

وتذرعت الامبراطورة بالصبر ردحا من الزمن ، ولـكن علاقة ابنها بالغادة الجميلة ازدادت على مر الايام توثقا ، فلم تطق صبراً وانفجر غضبها وذهبت الى نيرون وهو فى حفل كبير وتوسطت الحفل ثم انطلقت تقول غير عابئة بأشراف البلاط :

— هل يخلق بامبراطور انيترامى تحت أقدام غانية من العبيد ؟.. وهل من أجل هذه النتيجة أجلستك على العرش وبذلت فى سبيلك شبابى وعهدت فى تربيتك الى أحكم عقل فى المملكة ؟ لقد أهملت زوجتك أوكتافيا ونبذتنى أنا ، أنا التى لولاى ما كنت شيئا . . كلا . . لم أعد أحتمل . ولك ان تختار : إما تلك المرأة وإما أنا . واذا وقع اختيارك عليها فاعلم انى راحلة ، وان ثأرى لن أنساه وان أتباعى ما يزالون رهن اشارة منى

فلم يجب نيرون ، بل ألقى على والدته نظرة باردة ، ثم نهض وترك الحجرة دون ان يوجه اليها كلمة

وعندئذ أجفلت الامبراطورة وخيل اليها انها جاوزت الحـد ، فنكصت على عقبيها فجأة وبدلت لهجتها ، ولاذت بالدهاء والمكر ، وتبعت قيصر إلى مخدعه وقالت له فى هدوء :

— ان ما بدر منى يا ولدى لا يعبر تمام التعبير عما يشعر به قلبى . .

نعم . تؤلمنى رؤية تلك المرأة مستولية عليك سالبة حبك لى وحبي اياك .
فأنا والدة والوالدة يصعب عليها احتمال هذا .. ولـكننى فكرت وعفوت
على شرط ألا تنصرف عنى ، وأن تبقى فى فؤادك مكانا لحبي . . لا تخش
منى يا ولدى . لقد وهبت من أجلك حياتي ومن المحال ان استخدم
هذه الحياة فى الاساءة اليك . . وكل ما أطلبه اليك ان تظل كما كنت ،
ان تخفى هــذه العلاقة جهدك ، ألا تغادر قصرك لتذهب الى تلك
المرأة ، وخير لك ان تعهد الى في رعايتها بعد ان تنصح لها بالمـكوث
عندى . . وسأفرد لها أجمل حجراتى ، وأعنى بها وأسهر على راحتها ،
وأبذل قصاراى فى اسعادك كما أفعل دائما . . .

ففتح نيرون ذراعيه واحتضن والدته فلمعت عين اجريبين وخفق
قلبها وانتهزت فرصة هذا الحنان البنوى لتفرض ارادتها على الشاب
وتفوز بمـا تريد . ولـكن نيرون لمحها وهى تطرق برأسها وتلوى
بوجهها وتبتسم ابتسامة خبيثة ، فصحا من غفلته وأدرك ما ترمى اليه ،
فتنحى فى رفق عنها ثم قال فى تحفظ وأدب :

— شكراً لك يا والدتى . لن أنسى فضلك ما حييت . ولـكن
اكتيه ليست خليلتى بل خليلة سيرنيوس وأصدقك القول ان زوجتى
أوكتافيا هى وحدها التى تحتل قلبي . .

وانصرفت اجريبين والحنق يملأ نفسها والسخط يلهبها والذل يثير
فيها أبشع التصورات والافـكار

أما نيرون فقــد عاوده عطفه وحنانه وندم على ما فعل وحز فى
صدره ان تذل والدته على هذه الصورة ، وكانت هــذه الانقلابات
العاطفية كثيراً ما تخامره ، فأراد استرضاء اجريبين فأرسـل
اليها بعض الحلل والحلى الرائعة ولـكنها ردتها اليه ساخطة وقالت
للرسول :

— أبلغ مولاك ان هذه الحلل والحلى هى ملـكى وانه لم يرسل

الى شيئا من عنده . كل ما هنا لى . فليعرف مدى سلطانى . ولسوف يعرفه عما قريب . .

وهكذا اشتد النضال بين الوالدة والولد ، ورضى نيرون بالحرب وأعد لها عدته

ولم يتمهل الشاب ولم يدمن التفكير ، وفى صبيحة اليوم التالى أصدر أمره بعزل بالاس عشيق اجريبين من منصب أمين الخزانة وطرده الى المنفى شر طرد

وكان يعتقد ان بالاس هو الذى يوغر صدر اجريبين حقداً عليه فتخلص منه ، بعد ان نزل على رغبته ، ولم يأمر باجراء التحقيق معه فيما كان يتخذ من تدابير لانفاق مال الدولة . .

وغادر بالاس القصر عزيز الجانب تحوطه ثلة من الفرسان الجرمانيين أنصاره وهو جالس على محفته مرفوع الرأس ينظر الى الجموع ويبتسم

وأغضت الامبراطورة عن هذه الاهانة أيضاً ، ولم تشك أو تعاتب أو تحتج بل اختفت عن الانظار أياما طويلة وحبست نفسها فى مخدعها ومضت تعمل الفكر فى خير وسيلة تثأر بها لكرامتها المنتهكة ومجدها المفقود

وفى ذات مساء خرجت من المخدع ويممت وجهها شطر البهو الكبير حيث كان نيرون قد أقام مأدبة لأكتيه وحضرها سنيكا وبوروس وبعض الاخصاء وبريتانيكوس نفسه

دخلت عليهم ثم بسطت ذراعها وأشارت بأصبعها نحو الغلام المريض وقالت مهددة :

— بريتانيكوس لم يعد طفلا ، انه ابن كلوديوس ووريثه الشرعى . وما نيرون غير فتى دخيل لا مكانة له ولا حقوق

ستعلم روما كل شىء ، ستعلم انى فى سبيل ضمان الملك لابنى اقترنت برجل لا يحل لى زواجه ثم دسست السم لهذا الرجل ، أجل .

لم أعد أخشى شيئا ولن أفقد بهذا الاعتراف أي شيء ، سأصارح به جيش روما وسأقدم لقواد الجيش هذا الغلام وأصيح بهم : هذا هو مليككم الشرعي ، وسيخير القواد بين ابن اجريبين الدخيل وبين الاصيل النبيل بريتانيكوس ابن قيصر !

وصمتت وقد اندلعت عيناها وتطاير منهما الشرر . فارتجف الجميع وهلع قلب نيرون وسرت في جسمه قشعريرة ، وقبل أن يتكلم ، استدارت اجريبين وخرجت تجر خلفها غلائلها الرقيقة الناصعة البياض

ولما اختفت نهض نيرون شاحب الوجه مغضن التقاطيع وانصرف بدوره دون ان ينبس بكلمة

وخلا الى نفسه في مخدعه وجعل يتذكر أشياء مرت به وغاب عنه معناها

تذكر حفلة كان بعض أشراف البلاط قد أقاموها ونظموا فيها لعبة يفرض على المغلوب فيها أن يخضع لحكم يصدره عليه الغالب . واتفق أن كان الغالب نيرون والمغلوب بريتانيكوس . وأن نيرون فرض على الغلام القاء أبيات مختارة من جيد الشعر ، فنهض الغلام والقى قصيدة من وضع انيوس تشير أبياتها في عبارة واضحة لاذعة الى حياته هو ، وشقاء أبيه ، وشقاء وطنه الذي سطا عليه رجل غريب فلم يكد يتم القاءه حتى تأثر الاشراف ولم يستطيعوا كتمان عواطفهم فهتفوا له تقديراً واعجابا !

هذا الحادث مثل الآن في مخيلة نيرون فاختلج وساورته الوساوس وغشى الخوف في قلبه وتملكت الرعدة أعضاءه وأحس للمرة الاولى أن أمه كائن شرير وان مركزه قد بدأ يتحرج وأن حياته الغالية المجيدة أصبحت في خطر !

وتلفت حوله فشعر أنه في حاجة الى رجال عمل ، الى أصدقاء مغامرين أقوياء يستطيع الاعتماد عليهم في ساعة الشدة . وكان يدرك أن بوروس هو من أولئك الجنود الشرفاء الطيعين القصار النظر ،

وان سنيكا فيلسوف وأخلاق ورجل تأمل تجريدى محض ، ولذا فقد تاقت نفس الامبراطور الى البحث عن آخرين ، عن أعوان أوفياء مخلصين تتوافر فيهم قوى التفكير مقترنة بقوى الجرأة والشجاعة والاقدام

ولاح لنيرون أن اجريبين قد نفد صبرها وانها قد تتهور وتتخذ من التدابير ما يمكن أن يضعه فى المستقبل القريب أمام أمر واقع

وكان يعلم حق العلم أن حياة ابنها لاتعادل مطامعها ، وأنها قد تعفو عنه فى النهاية اذا ما قدر لها التغلب عليه ولكن أنصارها قد يجلسون بريتانيكوس على العرش وقد يذهب بهم اخلاصهم لاجريبين الى حد الفتك بنيرون نفسه والتخلص النهائى منه

هذه الافكار كانت تعصف بذهنه وتؤرقه وتبتليه بضرب من السوداء ، وتشرده فى أبهاء قصره حائراً قلقا ساخطا لا يدرى ماذا يفعل وعلى من يعتمد

وأما اجريبين فقد كانت تحيك دسائسها فى الظلام ، وكان نيرون يدرك ذلك ويسائل نفسه هل الحكمة تقضى عليه باتخاذ خطة الهجوم أم اتباع مسلك التريث والانتظار

ولاشك فى أنه كان ما يزال يحبها ، ويحفظ لها الجميل ، ويضن بها على الموت . ويذكر جهادها الشاق فى سبيل مجده ، فخطر له أن يمحو من قائمة الأحياء ذلك الغلام العليل الذى يهدده وجوده والذى يدعى بريتانيكوس . .

وانعم النظر فى هذا الأمر وبدا له أن الضرورة السياسية تقتضيه وأن مجرد قتل بريتانيكوس ينزع أخطر سلاح من يد اجريبين

وطفق يبرر هذه الخطة ويلتمس لنفسه شتى الأعذار ويتساءل أليست حياتى غالية وعظيمة ، ثم أليس من حقى الدفاع عن هذه الحياة، ثم أليس ذلك فى مصلحة روما التى بدأت تتنفس فى عهدى ، والتى أحست القوة والعزة منذ وليت أمرها ؟ . . أجل ، ان تقاليد البطولة

الرومانية لتفرض على التضحية بأقدس الروابط من أجل سلامة الدولة ومصلحة الوطن ! .

ونمت الفكرة فى رأسه وتضخمت فاسترسل فيها وعزم على ارتكاب الجرم !

وكان يعلم أن اجريبين استعانت على قتل كلوديوس بالسم ، فخطر له أن يستخدم السم هو أيضا . ولما استقر فى ذهنه هذا الخاطر ابتسم ابتسامة شيطانية وعول فى تحقيق رغبته على نفس الشخص . . على نفس المرأة . . . على العرافة لوكوست التى عاونت اجريبين فى القضاء على كلوديوس !

وكان قد اطلق سراح لوكوست وأمر بوضعها تحت رقابة رجل من الشرطة يدعى جوليوس بوليو ، فعهد نيرون الى جوليوس باستقدام العرافة ثم أمرها بتجهيز سم أشد وقعا وأبلغ اثراً وأسرع مفعولا من ذلك الذى صنعته لاجريبين

وامتثلت لوكوست وجاءت بالسم فصبه الامبراطور فى كأس بريتانيكوس فى أثناء وليمة عظيمة حضرتها اجريبين واوكتافيا وجميع أصدقاء نيرون ومستشاريه

وكانت الحفلة رائعة حافلة بالراقصات والمهرجين وضاربى الدفوف وكانت أوكتافيا تلهو وتضحك ، واجريبين هادئة متحفظة كعادتها ، ونيرون يبتسم ويتأمل بريتانيكوس وقلبه يعلو ويهبط . وعلى حين فجأة نهض الغلام واشرأب بعنقه واندلعت عيناه وتشوه وجهه من فرط الألم . ثم رفع يديه وأمسك بهما رقبته ، ثم تهاوى على نفسه وضرب الفضاء بذراعيه وسقط على الوسائد مرسلا صوتا ضعيفا مخنوقا يشبه الحشرجة . فجمد العبيد فى أماكنهم ، وارتبك الاشراف ، وتنحى الكل عن الغلام خوفا وذعراً ، وتصاعدت النظرات الوجلة المرتابة وجعلت تنتقل من وجه اجريبين الى وجه نيرون

وقطبت اجريبين حاجبيها وجحظت عيناها وبدا عليها شبه اشمئزاز

مروع فأدرك الجميع أنها بريئة . وأما نيرون فقد ظل ساكنا غير حافل ، تغمر محياه تلك الابتسامة الوسنانة الحالمة فأيقن الجميع من أشراف وعبيد أنه هو المجرم !

وأخيراً تحرك وقال فى لهجة فاترة :

— علام هـذا الاضطراب ؟ ان أخى بريتانيكوس مصاب كما تعلمون بمرض عضال ، ونوبات هذا المرض تباغته ، وليست هذه هى المرة الاولى التى تنتابه فيها نوبات الصرع . . اطمئنوا ، سيعود الى رشده بعد قليل

وأومأ بيده فحمل العبيد جثة الغلام واستمرت الحفلة

وقبل أن يفرغ الامبراطور ورفاقه من معاقرة الخمر والتمتع بمشاهدة الغانيات يرقصن وينشدن أجمل القطع وأبدع الأناشيد ، كانت جثة الامير بريتانيكوس قد أحرقت ودفن رمادها فى ميدان الاله مارس وفق الخطة المحكمة التى كان دبرها نيرون

واتفق أن تساقطت فى ذلك اليوم أمطار غزيرة مصحوبة برياح هوجاء ، فذعر الشعب وتناقلت الألسن نبأ الوفاة ، وسرت اشاعات القتل ، واندفع جمهور كبير نحو ميدان مارس ، بينما كان الجنود وحملة المشاعل يوارون فى الضريح رماد الفقيد ، واشتدت الأمطار واستحال صوت الريح الى زئير ، وغابت النجوم ، وانتشرت الظلمة ، ولبث الجمهور يحدق الى الجنود تحديق الواجم المحير المصعوق

وأدرك الناس الخوف والجزع وترددوا فى ذكر اسم نيرون صراحة وقال أشجعهم وأعقلهم :

— ماذا تريدون ؟ . . لا يمكن أن تقسم الامبراطورية بين قيصرين . . كان لابد أن يفسح أحدهما المجال للآخر . . ولقد حمت الآلهة روما وأبقت لها نيرون منقذها !

هذا ما كانت تلهج به ألسنة الرومان ، أما الاجانب المشهورون باسم البرابرة ، والذين كانوا يملأون روما فقد تجمعوا بغتة فى أقصى

ميدان مارس وجعلوا يعلقون على الحوادث تارة باللغة اليونانية وأخرى باللاتينية ويقولون :

ـــ ان بابل ستسقط ! . . ستسقط هذه المدينة المجرمة التي ترغم العالم على اجتراع كأس آثامها ! . . ستسقط روما ! . . لأن من يعبد الحيوان يحمل طابع الحيوانية على يده وجبهته ! ولسوف يعذبه الله بالنار والكبريت على مشهد من الملائكة الابرار ومن الحمل الوديع مخلص العالم ، ولسوف يتصاعد دخان عذابه ويملأ آفاق الأجيال والقرون ! .

وكان يبدو على مرددي هذه الأقوال أنهم من الطائفة الجديدة التي اتبعت المسيح ، ولقد ظلوا متجمهرين صائحين حتى فاجأتهم ثلة من الجند أهاب بهم قائدها قائلا :

ـــ تفرقوا ! .. اسرعوا ! .

فصمت المسيحيون فجأة وتقهقروا ، ثم ابتلعتهم الشوارع وغيبتهم فى جوف الظلام

- ١٠ -

وسادت عقب موت بريتانيكوس فترة هدوء حزين ، سكنت فيها الارواح ، وانطوت النفوس ، وخيم عليها القلق ، وساورها الخوف من المستقبل المجهول

ولم يجسر أحد على اتهام نيرون . فالسلم كان مستقراً فى عهده خارج المملكة والرخاء كان شاملا الحياة داخلها ، والرأى العام الخاضع لفكرة المصلحة يبرر سلوكه ويعلن ان تلك الوفاة قد أنقذت البلاد من خطر الثورة

ولكن الرأى العام الذى أدرك بغريزته ان بريتانيكوس مات مقتولا ، عاب على نيرون ذلك النداء الذى أصدره عقب موت الامير والذى نم عن كثير من الضعف والجبن والنفاق

ولقد وردت فى النداء هذه العبارات :

« شاءت الآلهة ان تبلو الاسرة الامبراطورية بوفاة الأمير النبيل بريتانيكوس . ولا ريب فى ان الشعب يشارك البلاط حداده وألمه . ولكن بعض الأجانب أعداء الرومان روجوا من الاشاعات ما يدل على وضاعة الاصل وسوء الطوية . وانى لأصرح بان أعظم أمانى كان اشراك الفقيد فى الحكم ، غير ان الآلهة أبت إلا ان تلقى هذا العبء الثقيل على عاتقى وحدى . فأنا اليوم لكم وبكم . ولا عون لى الا بتأييد مجلس الشيوخ وتأييدكم . فامنحونى هذا العزاء فى وحدتى التى يكتنفها الألم ، واعلموا أن الفوز بحبكم هو كل سلواى »

هذا النفاق استثار ضمير الشعب فاستنكر مسلك نيرون ومسلك

الفيلسوف سنيكا وصديقه بوروس اللذين اشتركا مع نيرون فى محاولة توطيد صرح الدولة على أساس النفاق وقاعدة الجريمة

ونسب بعضهم هذا النداء الى سنيكا وحملوه مسؤولية وضعه وباتوا ينتظرون ما يمكن ان تقوم به اجريبين انتقاما من الامبراطور الذى جردها من كل سلطة وأصاب مطامعها فى الصميم

وما كادت تنقضى بضعة أيام على مصرع بريتانيكوس ، حتى أفاقت اجريبين من غشيتها ونفضت عنها غبار الذل وارتد اليها نشاطها ، فاستجمعت قواها وحولت أبصارها نحو أوكتافيا ، ثم قربتها اليها ، وجعلت تتملقها وتطرى محاسنها وتعرضها على أصدقائها النبلاء وتغريهم بها ، وتتحين الفرص لتوثيق الصلة بينها وبين واحد منهم باعتبار ان أوكتافيا هى الامبراطورة وان من يتصل بها يستطيع ان يملك النفس بالتحكم فى الامبراطورية يوما من الايام

وأرادت اجريبين ان تضرم فى صدر زوجة نيرون شعلة السيادة والعزة ، وان تشعرها بحقها فى مقاسمة زوجها أعباء السلطة ، وان تصلها برجل من رجالها ، يستحوذ على لب المرأة ويخضعها وتتخذ اجريبين منه ومنها أداة للانتقام من الامبراطور عند ما تسنح الفرص

وانطلقت اجريبين تعزز مركزها ونفوذها . فجمعت من المال ما استطاعت ، وباعت جزءاً كبيراً من ضياعها ، وشاركت فى السرقة بعض جباة الضرائب ، وأنشأت لها حزبا بل جيشا ألقى الذعر فى فؤاد نيرون

وأحس الامبراطور ان الافعى ما تزال تكمن في داره ، وانها ما تنفك تنفث السم حوله ، فتربص بها وعول فى هذه المرة على سحقها

وترامى الى سمعه ان اجريبين قد وقع اختيارها على البطل النبيل روبيليوس بلوتوس المنحدر من سلالة قيصر أغسطس ليرث العرش من بعده ويخلفه فى حكم الرومان . فجن جنونه وعصفت برأسه أبشع الصور وطافت الخيالات المروعة بذهنه ولاح له طيف جريمة جديدة !

ماذا ؟ . أيقدم على هذا الأمر أيضا ؟ . أينزل الضربة بالمخلوق الذى وهبه الملك بعد أن وهبه الحياة ؟ كلا . . . ان مصرع بريتانيكوس ما يزال ماثلا فى ذهنه ، وهو بعد لم يشف من أثر هذه الصدمة التى أنهكت قواه وزعزعت ارادته من الأعماق !

كلا . لن يقتل اجريبين ! لن يرتكب هذا الجرم ! لن يجهز على البقية الباقية مما يشعر به من راحة واستقرار !

ولكن الجزاء لا مفر منه ولا بد أن يكون من جنس العمل

وإذن فلتطرد اجريبين من القصر وليحرم عليها اتخاذ حرس من الجرمان ولتهدد بالموت صراحة ان هى عادت الى سابق تمردها وانتقاضها

واتبع نيرون القول بالفعل فاستهولت اجريبين ما حل بها ولاذت بالدهاء كعادتها فوعدت باعتزال الحياة العامة ثم احتجبت عن الانظار فى قصر قديم اختاره الامبراطور مسكنا لها

وشاء نيرون الا ينتقص من قدر والدته أمام أشراف البلاط فكان يتعهدها بعين عنايته ويكثر من زيارتها ولا يذكر اسمها إلا مقرونا بعبارات التجلة والاحترام

وكان ان هدأت العاصفة ، وتناسى الشعب الجريمة أو نسيها ، وساد الأمن أجزاء الامبراطورية ، وانقضت فترة أحس الناس فيها الاطمئنان على حقوقهم وأرزاقهم ، فانقلبوا يمجدون نيرون ويسبحون باسمه ، ويعجبون بنبوغ هذا الفتى الشجاع المقدام الحكيم الذى أتى وهو فى العشرين من عمره بما قد عجز عنه أسلافه الكهول بعد تجارب شاقة مضنية

وزها نيرون هذا الفوز وضاعف كبرياءه فكان يصعر خديه ويمشى فى الارض مرحا ويقول لأستاذه سنيكا وضوء العظمة يشع من عينيه :

— حياة الأمم والأفراد فى يدى ، ورغبة السلام التى تملأ جوانحى

هى التى تحول بينى وبين امتشاق الحسام . ولـكن اشارة واحدة منى تكفى لاغراق العالم فى بحر من دماء . الى هذا المدى يبلغ سلطانى ، غير أنى أضن بالدم البشرى أن يسفك فى غير طائل ، ويكفينى من حياتى أن اكون انسانا يوحى الى النفس عاطفة الحب وعاطفة الاعجاب !

وكان نيرون فى ذلك العهد مولعا باصلاح الدولة وتجديد شبابها فمضى ينظم ادارتها وينعش ماليتها ويسهر على خير الأقاليم والمستعمرات ويقر خارج الامبراطورية ذلك السلم المقرون بالعدل والمستند الى حراب الجنود وقوة الجيش

ولـكن النجاح غير المنتظر أحدث فى مسلـكه الشخصى رد فعل هائل

خيل لـكبريائه أن من حقها وقد استتب لها الأمر وتحققت على يدها العظائم ، ان تطلق لنفسها العنان فى شبه هوس وجنون

وهكذا تحرر نيرون من كل قيد ، وعاد يستسلم لغرائزه ويتهالك على المتع والشهوات ، ويتمرغ فى حمأة الرذائل ، ويستبيح كل موبقة ويستخف بكل فضيلة ، متوهما أنه قد ارتفع حقا الى مصاف الآلهة وانه فوق كل عرف وكل شريعة وكل قانون

فـكان يغادر فى الليل قصره متنكراً ويغشى ومعه بعض الأصدقاء أقذر أحياء روما ويرتاد معهم بيوتها المشبوهة ثم يخرج بهم الى الشوارع العامة ، وهناك تأخذ نشوة الخمر بالبـاب الجماعة فيغنون ويصرخون ويتحرشون بالمارة ثم ينهالون على الناس ضربا وهم يقهقهون ، ثم يرجع بهم الامبراطور الى حيث تنتظرهم المحفات يحملها العبيد الى القصر تحت جنح الظلام

وكان يتفق للجماعة أن تصطدم ببعض الحمالين الأشداء ، فتنشب المعارك العنيفة بين الفريقين ويجرح أصدقاء نيرون ويرتد الامبراطور

نفسه الى القصر مهشم الوجه تقطر من جبهته الدماء

أمثال هذه اللذائذ المحرمة الغريبة كانت تستخف نيرون وتطوح بعقله وتنسيه أعباء الملك وتشعره بحرية جامحة مطلقة ، فكان يقبل عليها ويسرف فيها ويطرد بواسطتها شبح بريتانيكوس الذى عاد يراوده ويقض مضجعه ويحرمه لذة الرقاد فى دعة وأمن وصفاء بال

ومع ذلك فقد كان الامبراطور يشعر ببعض السعادة . كان قد تحرر من نفوذ اجريبين ومن سيطرة سنيكا ومن الغلام المريض الذى كان ينافسه فى الملك

أجل . كان قد اطمأن بعض الشىء الى المستقبل ولكن نفسه كانت خاوية ، والضجر كان مستحوذاً عليه ، وفراغ حياته الباطنية كان يشيع فى أخلاقه الهم والأسى

وظل يصدر القوانين الحكيمة ، ويعنى بمجد روما ، ويهتم بحراسة حدود الامبراطورية ، ولكن هذه الجهود لم تكن لتنقع ظمأه النفسى ، أو تشفيه من داء القلق الروحى الذى يشعر به أحقر رعاياه

ولذا فقد مال به ضجره الى اللذائذ والمتع الفنية فتعلق بها عسى أن يجد فيها منصرفا لأساه ومتنفساً للعواطف التى كانت مكبوتة فى أعماق صدره . فجعل ينحت التماثيل ويتدرب على فن الغناء ويمارس الأدب ويقرض الشعر

ولم تعد تقنعه عظمة الملك التى حباه بها القدر . فأراد أن يكون عظيما بنفسه ، أراد أن يكون نابغاً ، أراد ان يؤكد عبقريته فى أعمال فنية رائعة تصدر عن عقله الخاص وذهنه المستقل

وولد فيه حب الفنون اتقاداً فى الاحساس وجموحاً فى العاطفة ورغبة ملحة فى العثور على امرأة ممتازة تستطيع أن تشاركه عواطفه وتبادله أهواءه ويستطيع أن يرى فيها مثلا فنياً أعلى

وكان يعطف على أكتيه ولكنه كان يتبرم ببساطتها واتضاعها

وصفاء نفسها . كان يحبها كأخت لا كعشيقة ، وكان يطمع في امرأة تجمع بين اضطرام العاطفة وفتنة البدن ، بين حدة الذكاء واكتمال الأنوثة ، فشعر بذلك النبيل (أوتون) وفكر فى تسخير نيرون لمطامعه بالبحث له عن عشيقة يكون (اوتون) مستشارها

وأوشك اوتون أن ينجح ، ولكن القدر الساخر تنكر له فى اللحظة الأخيرة

وكان أوتون شابا وسيم الوجه مشرق الطلعة متأنق الزى فخوراً بشبابه وجماله وحب الامبراطور له ، فتمكن بعد جهاد طويل من الفوز بسيدة من أعرق الأسر الرومانية تدعى (سابينا بوبيا) .وكانت سابينا غادة ساحرة قل أن وقعت الابصار على مثلها ولكن ابنتها (بوبيه) كانت فى نظر العارفين أجمل منها وأفتن وأمتع

اشتهرت بوبيه بابتسامتها الرقيقة الوسنانة ومظهرها المتحفظ الوقور ، وانسجام تقاطيعها الكاملة ، وعظم الشبه بينها وبين تماثيل فيدياس . وكانت الى دلك موفورة العلم غزيرة الثقافة ذات صوت متهدج مؤثر ونظرة عميقة غريبة سرعان ما تستهوى النفوس وتأسر الألباب

وامتازت بوبيه فوق ما تقدم بحبها العزلة وازدرائها المجتمعات العامة وظهورها فى بعض الأحيان مقنعة الوجه تنساب بين الرجال فى عفة وأدب واحتشام . وكان أشراف البلاط يعرفون أنها لن تكون إلا لرجل عظيم ، وكان أوتون يعرف ذلك أيضا فتقرب الى والدتها ثم ترضى الفتاة واستمالها فقبلت اتصالها به وتزوجته . وعندئذ فكر أوتون الوصولى الوضيع النفس والاحساس فى اتخاذ امرأته وسيلة للسيطرة على نيرون

وكف اوتون عن الظهور فى القصر ردحا من الزمن ، ثم بدا فى يوم من الأيام هزيل الجسم شاحب الوجه كليل العينين فاستقبله الامبراطور ضاحكا فقال الشاب :

ـــ ماذا تريد يامولاى . . ان امرأتى جميلة وانى لأتمنى الموت بين ذراعيها . .

فرمقه نيرون بنظرة فاحصة وقال :

ــ أهى جميلة حقاً الى هذا الحد ؟

فأجاب اوتون قائلا :

ــ كيف تجهل ذلك وأنت القيصر ؟

فأشاح نيرون بوجهه ثم قال :

ــ علمت أنها فاتنة . . ولكن كيف . . كيف لم تتح لى فرصة مشاهدتها والاعجاب بها ؟ !

فقال اوتون :

ــ كانت ولا ريب تخشاك وتهيبك

ثم ابتسم وأردف :

ــ ولقد أصبحت أنا أيضا اخشى عليها منك

فضحك نيرون وزهاه الاطراء ولمعت عيناه وتملكه الفضول وجعل فى الوقت بعد الآخر يطرح الأسئلة على أوتون ويحاول اجباره على التحدث عن امرأته ، ولكن أوتون كان ذكيا فراوغ وتجاهل ثم أدعن فى النهاية للامبراطور وقال فى لؤم وخبث :

ــ لم تحدثنى عنها يا مولاى ؟ ان كل ما أملك هو لك . ولكن هى . . بالله عليك لا تفكر فيها ودعها لى . . لا تنتزعها منى ولا ترغمنى على الظهور بها أمامك

فقال نيرون :

ــ ماذا ؟ . أهى فاتنة الى حد أنك تخشى وقع النظر عليها ؟.

فاطرق اوتون ثم ابتسم ابتسامة خفيفة وقال :

ــ كلا . بل انا أخاف عليها من جمالك انت . . من سحرك انت أخاف ان تفتن بك وتعرض عنى

فصاح الامبراطور قائلا :

— أهى أجمل من أكتيه ؟ . اجمل من اجريبين ؟

فاجاب أوتون :

— المهم فى الأمرانى أحبها . وعين المحب عمياء . ومع ذلك فروما أيضا عمياء والرومان بأسرهم يعرفون انها جميلة

فقطب نيرون حاجبيه وانحني ثم بسط ذراعيه ملتمسا متوسلا وقال :

— دعنى أراها ولو مرة واحدة .. هل خيبت لك سؤلا ياعزيزى أوتون ؟ .. امنحنى هذه النعمة ودعها تزور القصر . وأنا اقسم لك انى لن اطلب اليك رؤيتها مرة ثانية . .

وامتثل اوتون . . وظهرت بوبيه فى القصر !

ولم يكد يبصرها نيرون حتى هام بها

راعه منها جمالها الكامل ونضارة بدنها وفيض العزة المنسكب عليها ، وذلك الخفر الموسوم به شخصها . فأقبل عليها ولكنها أعرضت عنه وأسرفت فى كبريائها وشموخها ، فاهتاج الامبراطور وصغر فى عين نفسه ، وخيل اليه أنه كان مخدوعا فى جماله وأن عظمته المرهوبة لم تحدث فى قلب هذه المرأة أى تأثير ...

وكان يتلفت اليها فى بعض الأحيان فيلمحها تنظر اليه ، فلا يكاد يحدق اليها حتى تلوى بوجهها فجأة كأنها لم تره

وحدث أن باغتها ذات مرة تتفرس فيه وصدرها يعلو ويهبط وشفتها ترتجف فقال فى نفسه :

— انها تحبنى ! ...

ثم ساوره القلق حيال كبريائها واعراضها ، ثم تشجع وكبح جماح ضعفه واقتحم فى لحظة من لحظات جنونه ذلك الحصن المنيع بأن قال لبوبيه غير حافل :

— الن أكون محبوبا منك أبداً ، يا غرامي الوحيد فى هذه الدنيا ان الى يشفع لى ، فهل لا يحس قلبك هذا الألم ؟

ألا تعرف نفسك للرحمة معنى ؟ منذ رأيتك شعرت بما ينقص

حياتى . لا سعادة لى الا بك فاذا تمنعت على انهارت قواى وعجزت عن حمل عبء الامبراطورية

فظلت بوبيه صامتة ثم ارتجفت ثم رفت أهدابها وتساقطت من عينيها الدموع . فأجفل نيرون وارتبك ولكن المرأة نهضت وتقدمت اليه ونزعت نقابها عن وجهها وقالت :

— ان مايشعر به قلبي لا حق لأحد فى معرفته حتى ولا لك أنت . انى امرأة متزوجة وقد حمل الى أوتون ماله وحبه واسمه الشريف . فكيف أخونه وأجحد فضله ؟ لو كنت امرأة شديدة المطامع لأنسانى حبك واجبي ولكنى زوجة فاضلة تضع سمعتها فوق عظمة قيصر ! . ان لقبك لا يبهرنى ولكن حبك الصادق هو الذى يؤثر فى . على أنى لن اقبل منك حبا يشاطرنى فيه مخلوق . وكيف تريد ان أكون لرجل هو سيد العالم حقا ولكنه يحب اكتيه . يحب جارية أصبح هو عبداً لها !.

فصرخ نيرون قائلا :

— ماذا تهمنى اكتيه ! لن أراها اذا شئت . واذا شئت طردتها منذ الغد !

فأسبلت بوبيه أجفانها وغمغمت قائلة :

— ولكن أنا . أنا . أنا لا أستطيع أن أطرد أوتون !

وكانت بوبيه أشد دهاء من زوجها ، فبدل أن ينتفع بها انتفعت هى به ، وبدل أن يستخدمها استخدمته وحرضت نيرون عليه فاقصاه عن روما وأقامه حاكما على لوزيتانيا ثم اتخذ من بوبيه عشيقة له

وأدركت بوبيه أن النصر حالفها ولكنها لم تخدع نفسها واعتبرت هذه الخطوة أولى خطواتها نحو تحقيق أملها الأكبر وهو ألا تستولى على قلب الامبراطور فقط بل على الامبراطورية بأسرها أيضا

وكانت تعلم أن عقبات هائلة سوف تعترض طريقها ، ولكن عزيمتها الماضية كانت تلهبها وتمهد السبيل أمامها وتذلل فى خيالها كل عقبة وتدفعها الى الأمام فى بطء وحيطة وحذر

- ١١ -

وتدله نيرون حبا ، وأسلم قياده لبوبيه ، وزاد فى تعلقه بها انها كانت أشد عطفا عليـه من اكتيه ، وأصفى حنانا ، وأجمل مظهراً ، وأقدر على الاغراء والتملك

أحست بغريزتها ان الامبراطور يطلب فى المرأة مالا يجده فى نفسه ، فغمرته بآيات الاخلاص ، وفيض العواطف ، وضوء الروح ، وشفعت كل ذلك بفتنة بدنية تتمثل فى وجه طاهر برىء كوجه عذراء . . .

ولا شك فى ان بوبيه كانت ممثلة ماهرة ، ولـكن مالا شك فيه أيضا ان تعلقها باليهود وميلها الى شرائع اليهودية كان يكسبها طابعا روحيا خاصا كذلك الطابع الذى خلعته المسيحية على شخصية اكتيه

وكأن نيرون قد استشف من خلال هذين الوجهين مبلغ القوى الروحية الـكامنة عند النصارى واليهود والتى كانت قد بدأت تسرى فى جسم الامبراطورية ، فأحبهما لتجسم هذه القوى فيهما ، ولما بينها وبين الروح الوثنية من تنافر عميق

والحق ان بوبيه لو كانت أقل طموحا وأكثر تشيعا لليهودية أو النصرانية لاستطاعت ان تجعل من نيرون امبراطوراً يهوديا او مسيحيا . ولـكن مطامعها الهائلة جعلته سفاحا ثم أحالتـه إلى رجل معتوه

الامبراطورية . . . هذا ما كانت بوبيه تسعى لامتلاكه وترمقـه بعين عذبها النهم

ولـكن كيف تفوز برغبتها وكيف تتفوق وكيف تصبح السيدة

الآمرة وهناك أوكتافيا زوجة الامبراطور ؟ . .

وكيف يمكنها ان تصيب من اوكتافيا مقتلا وخلفها اجريبين تحميها وتعقد عليها الامل وتغامر بحياتها من أجلها ؟ . .

لقد أخضعت قلب نيرون ، وها هوذا يهرع اليها كالمريض ، ويلوذ بها كالطفل ، ولا يطيق فراقها لحظة . هاهوذا يعبدها ويرتجف أمامها ويبكي كالنساء ، ولكن ما قيمة كل هذا ونيرون ما يزال يتصل بوالدته ويرعاها ويحترمها ويخافها ويحرص فوق ذلك على مرضاة زوجه أوكتافيا ؟ . .

بل ما قيمة كل هذا وإجريبين ما تزال على قيد الحياة ، تتهدد وتتوعد وتنذر بالرحيل عن روما ، وتوغر صدر ابنها حقداً على بوبيه ، وتجمع من المال والانصار ما يجعلها فى مأمن من الغدر والخديعة قادرة على البطش بأعدائها عند الاقتضاء ؟ . .

وتمكنت هذه الافكار من ذهن بوبيه ، فأسرعت وبدلت خطتها واتبعت مسلكا آخر حيال نيرون

كانت تمنحه غرامها ولكن بلا رغبة ولا حرارة فكان يأخذ عليها برودها ويعجب له ويقول ساخطا مستنكراً :

— ألن أفوز بحبك أبداً ؟ وهل أذنبت فى حقك يوما ؟ لقد طردت اكتيه من أجلك وفرضت عليها الحياة بجوار والدتى . ولقد أهملت زوجتى اوكتافيا وانصرفت عنها ووهبتك أنت وحدك روحى. ومع ذلك فأنا أحسك غريبة عني . فماذا تريدين ؟ مرى .. تكلمى .. أمنحك الآن كل شىء !

ولقد أجابته يوم أن عاتبها ، بهذه العبارات التى جاهدت لتودعها كل ذكائها :

— هل فى وسع حبك أن يمنحني ما تشتهى أحلامى ؟

لا .. محال .. دع هذا ولا تطلب مني أكثر مما استطيع ان اعطى لقد أردتني لك وها أنذا . . .

— ولكنى أريد قلبك لا جسدك !

فغضت من طرفها وقالت فى هدوء لاذع :

— الخليلة .. ليس لها قلب ! . هى متعة سيدها فحسب ، فانا لك ولكنك لن تفوز بقلبي ولن تعرف حقيقة فكرى

فسرح نيرون بصره فى الفضاء لحظة ثم تحول اليها وصاح قائلا :

— أعرف ما تريدين ! .. السلطة !.. النفوذ ! . الامبراطورية! تعلم الآلهة ان لاأحب الى من اتخاذك شريكة لحياتى . ولكنى لو طلقت أوكتافيا فقد ينهار هـذا العرش الذى تريدين الصعود اليه ! . ان اجريبين ماتزال قوية وفي وسعها أن تجند الجيوش وتثيرهم على وتنصب على البلاد قيصراً آخر بدلا منى

فصرخت بوبيه فى وجهه :

— لقد مات كلوديوس ومات بريتانيكوس ، فهل تظن أن اجريبين خالدة ؟

فاختلج نيرون وأشاح بوجهه وعلت جبهته سحابة اظلمت بصره ، فحاول أن يصرف عشيقته عن هذه الفكرة ولكن بوبيه تشبثت بها وأصرت عليها وكانت كلما اقترب منها نيرون أعرضت عنه ونفرت ثم اقبلت عليه كارهة وارتمت بين أحضانه أشبه بجثة ميت ، فكان يهتاج ويلعن والدته ويلعن زوجته ، ويتمنى لو تصاب الاولى بمرض خبيث يقضى عليها ، ولو تصبح الثانية طالقا ، فيخلو له الجو ويقترن بعشيقتـه ، ويقاسمها الحب والسلطان فى وضح النور وعلى مرأى من الجميع



بوبيه

واشـتعل قلب نيرون

حبا ، وعذبه فتور بوبيه ، وضاعف هيامه بها ، فاشتد حقده على اجريبين ، ورأى فيها أكبر عقبة تعترضه ، فلم يعد يحتمل وجودها ، وتصور المتعة التي يمكن أن يظفر بها من عشيقته لو ضحى بوالدته ، فجالت بخاطره فكرة الجريمة !

يقتلها ؟ . يقتل والدته ؟ . ان بدنه ليقشعر هولا وذعراً لمجرد التفكير فى الأمر ! كلا . . لترحل عن روما فقط ! لتغادر العاصمة ! النفى . النفى . نعم . اما القتل فلا !

وعندما عقد نيرون العزم . وذهب الى اجريبين وصارحها بما يريد جمدت المرأة لحظة وحدقت اليه طويلا ثم قالت :

— آثرت أن تقصينى عن روما على ان تبعث بى الى الموت ؟ أليس كذلك ؟ . اشكرك على هذه الرحمة وأنبئك بأني مسافرة صباح الغد

وغادرت اجريبين روما الى انتيوم . وابتهج نيرون وتهلل وأسرع من فوره الى بوبيه وقال لها ودمع الفرح يجول فى عينيه :

— رحلت عنا . لم يعد فى مقدورها ان تعكر صفو حبنا

وتوقع نيرون ان تعانقه بوبيه سعيدة شاكرة ، ولكنها افلتت منه وصدته عنها وقالت بلهجة حادة وقد تصلبت عضلات وجهها :

— ان هذا الرحيل لن يبدل من الأمر شيئا !

فانسحق الامبراطور واكفهرت سحنته ولم يجسر على التفوه بكلمة

ومنذ ذلك اليوم تقررت في ذهنه ضرورة القتل . ولم يعد يفكر الا فى الجريمة التى تنقذه من اجريبين وتفتح أمام عشيقته أبواب السعادة والمجد !

- ١٢ -

كانت أقصى أمنية لدى الامبراطور ان ينفرد بخطته ولا يشرك فيها أحدا ويعمل بنفسه على تحقيقها فى ظلام السر والكتمان

وكانت الفكرة تطارده وتتحكم فيه وتسوقه أمامها والرعب يملأ قلبه . وكان قد أحب أمه حبا عميقا ، وأحس كأن حقده الآن عليها ما يزال مشوبا ببعض ذلك الحب ، فاضطرب وحار وتوزعت عواطفه واختلطت احساساته وسادت فى نفسه الفوضى

وكانت العلوم التى تلقاها على يد أستاذه « سنيكا » ، لم تنفذ الى صميم قلبه ، ولم تبدل ميوله وأهواءه ، وان كانت قد شغلت حيزا من فكره ، ومكنته من الاضطلاع بأعباء الملك

فغرائزه كانت تتراكض فى مسرح كيانه ، وتتقاتل وتتناحر ، وكانت الغلبة لأقواها وأعنفها وأشدها جسارة وقحة

ولم يحدث ان أخطأت اجريبين النظر فى حقيقة شخصية ابنها . كانت تعلم ان المرأة التى يمكن ان تستولى عليه وتستبد به ، يجب ان تكون رائعة الجمال ، وان تمنحه كل ما فى قلبها من كنوز وكل مافى جسمها من لذائذ . فلما أقبلت بوبيه واتخذها نيرون عشيقة ، شعرت اجريبين ان تلك المرأة قد توافرت فيها تلك الشروط ، وأدركت انها أمام عدو يخشى جانبه ، عدو يستطيع ان يصرعها بما يهب من أفانين المتع التى ليس فى مقدور الام ان تعطيها

وكانت بوبيه قد راقبت نيرون وأيقنت ان فكرة القتل ملكت عقله وحواسه ، فكافأته على ذلك بأن بالغت فى عطفها عليه ، ومنحته

من ضروب الحب ما أنساه صدها واعراضها ، فتأثر وأوسعها ضما وتقبيلا . فقالت له بصوتها الناعم الرقيق وهى تعانقه :

— لا تشكرنى فأنا لم أعطك بعـد شيئا ! . . ومتى عرفت كل ما يكنه فؤادى من عظيم الحب لك ، فعندئذ ، وعندئذ فقط ، يمكنك ان تفهم لماذا اوجدك القدر على هذه الارض ! . .

وكان فى صوتها من قوة الاغراء ما عصف بخيال نيرون وفتح أمام ابصاره عالما جديدا من الحرية والمجد والجمال ، فانطلقت من صدره صرخة دوت لها أرجاء الحجرة وقال :

— لتمت اجريبين ! . . لتمت اجريبين ! . .

وبدأ الامبراطور يمعن النظر فى الجريمة ويقلب الأوضاع والخطط على مختلف وجوهها . وشاركته عشيقته فى التفكير ، وتبين لهما آخر الامر ان لا مفر من استخدام اصدقاء أمناء يمكن الاعتماد عليهم فى القيام بهذا العمل المروع . فوقع اختيارهما على رجلين يدعى الاول « تيجيلان » والثانى « انيستوس »

وكان « تيجيلان » من عشاق اجريبين القدماء ولكنه هجرها وأرصد قواه على جمع المال فقتل اعمامه الثلاثة واستولى على ثرواتهم ، ثم أنشأ حظيرة كبيرة لتربية الجياد واعدادها لحفـلات السباق الامبراطورية . وأما « انيستوس » ، فبعد ان ساهم فى تربية نيرون أيام حداثته ، ولازمه ملازمة الصديق للصديق ، وأفسد خلقه وسمم نفسه ، كوفىء على ذلك بان رفع الى منصب أمير من امراء البحر

وكان هذا الرجل الماكر الذكى الحقود لا يحجم عن ارتكاب أية جريمة ، وكانت اجريبين قد أهانته ذات يوم على ملأ من الناس ، فوجد لذة عظيمة فى هذه الفرصة التى سنحت له كى يبطش بها

واجتمع الثلاثة فى زاوية من زوايا القصر وقال بوبيه :

— يلوح لى ان السم أمضى سلاح ! . . السم لا يؤلم ولا يفضح القاتل فى عين القتيل ولا فى اعين الناس

فقال نيرون :

— ولكنه قد يكون ضعيف التأثير على بنية قوية ، لاسيما ان اجريبين قد اعتادت تناول السموم بمقادير معينة . وأخشى ان تعجز « لوكوست » عن تجهيز سم ناقع ، فتفطن اجريبين للامر ، فتسوء العقبى

فارسلت بوبيه صوتا كفحيح الأفعى وقالت :

— الخنجر اذن ! ..

فهز انيستوس رأسه وقال :

— لا ! . . يجب ان لا نسفك الدم والا افتضح القاتل والمحرضون .

فابتسمت المرأة وقالت :

— اذا كان عندك رأى آخر او خطة شائقة احكمت وضعها فصارحنا بها على عجل وأنقذنا من هذه الحيرة

فقطب انيستوس حاجبيه ونظر الى بوبيه فترة ثم تحول الى الامبراطور وقال :

— انا من امراء البحر وأعرف حق المعرفة مخاطر البحر كما اعرف كيف أتقيها . ولكن السفر على ظهر سفينة هو أمر محفوف بالخطر على الدوام . وان مجرد كسر يحدث فى لوح من الالواح يكفى لتسرب المياه الى السفينة وغرقها فى قاع اليم . وفى وسعى ان انظم كارثة بحرية لا يمكن ان تثير على الشكوك او تلقى الشبهة على قيصر ! . . ان النزهة البحرية فى الجو الصحو كثيراً ما تنتهى الى كارثة !

وصمت انيستوس وهو يبتسم ، وعندئذ هتف نيرون :

— إنها لفكرة خارقة صدرت عن خيال فنان ! .. لننشىء سفينة حقيقية ، ولتبحر باجريبين ، ولتكن هذه الفاجعة مسرحية فنية عظيمة تزرى بكل ما وضعه الأغارقة من خالد المسرحيات

* * *

وكانت اجريبين تتنقل فى حدائق القصر الذى نفيت اليه فى مدينة انتيوم . وانها لترفع ذراعها المرمرية وتستند الى تمثال لأحد الآلهة وتأخذ فى التأمل والتفكير مستعيدة مجدها التالد ، واذا برسول يقبل عليها موفداً من قبل قيصر

فخفق قلبها وأبرقت عيناها وقالت للرسول :

— ما وراءك ؟ . .

فانحنى وناولها كتاباً من نيرون يطلب اليها فيه أن تلحق به الى اقليم بابيس حيث يقيم عيداً رائعا للالاهة مينرفا ويود أن يشهد الآلهة جميعا على حبه الخالص وتعلقه الشديد بوالدته المجيدة

فاستضاء وجه اجريبين ، ورفعت رأسها وهزته تيها وعجبا ، وقد خيل اليها من فرط الكبرياء والاعتداد بالنفس والثقة العمياء بالمستقبل ، أن نيرون أصبح فى حاجة اليها وأنه عفا عنها ، وأن الحظ أوشك أن يبسم لها من جديد

ولما وصلت اجريبين الى ضفة (رأس مينرين) تلبية لدعوة ابنها ، خف لاستقبالها تيجيلان وانيستوس وبوروس والفيلسوف سينيكا . وما كادت قدمها تطأ الأرض حتى هرع اليها نيرون فعانقته واغرورقت عيناها بالدموع

واحتضن الامبراطور والدته وقبلها وتمتم العبارة المأثورة التى كان يستقبلها ويودعها بها أيام حداثته وفى بدء عهده بالملك :

— لأنت أفضل الأمهات !

وكانت الشمس فاترة الحرارة ، وهتاف الجند يشق عنان السماء ، وابتسامة نيرون صافية رقيقة ، فاطمأنت اجريبين ، وازدادت يقينا بأن ابنها قد راجع نفسه وأدرك خطأه وعاد اليها بعقله وقلبه

وسار معها يجاذبها أطراف الحديث ويستفسرها عن صحتها وهو يضحك ضحكا بريئا ينم عن عاطفة خالصة الصدق خالصة الولاء . ثم صعد الى محفته وأشار اليها بالصعود الى محفتها ، ثم تحرك الموكب متجها

نحو بايس حيث تقام الأعياد تكريما للالاهة مينرفا

ومدت الموائد هناك واتخذ نيرون مجلسه بجوار والدته وشرع يبدى لها من آيات العطف والمودة ما أثلج فؤادها فرحا وأقصى الماضى عن ذهنها وعللها بمستقبل أجمل منه وأروع

وكان نيرون الممثل الماهر ، والمنافق الكبير ، قد زار السفينة التى أعدها انيستوس لاهلاك اجريبين . ومع ذلك فقد كان يبتسم تارة ويضحك أخرى ويتجه نحو والدته بعينين هادئتين لا يعكرهما أى قلق ولا يشوب نظراتهما أى خوف

والواقع أنه لفرط اهتمامه بالساعة التى هو فيها ، لم يطل التفكير فى المصير الذى ينتظر والدته

وتلك كانت أظهر أعراض شخصيته

كان يعرف أن الموت واقف لها بالمرصاد ، وكان يخدعها ويمثل دوره خير تمثيل . ولكنه فى نفس اللحظة كان غير مكترث لما سيقع ، يجول ببصره فى أنحاء البهو معتزاً بسلطانه ، معجبا بالراقصات الجميلات ، مهتما بازدراد الطعام ، سعيداً بوجود والدته العظيمة الى جانبه . . .

هذا التناقض فى شخصيته هو الذى خدع اجريبين التى لم تفهم أن نيرون الغادر المتقلب كان يبتسم لها وهو يحاول أن يعتقد أن الموت سيهلك بعد لحظة امرأة غريبة عنه لا تمت اليه بأوثق الروابط وأقدسها . . .

وظلت اجريبين تداعب آمالها وتتصور قصرها فى روما ، وتتصور نفسها محاطة بالوصائف والعبيد ، تنهى وتأمر باسم نيرون منكلة بعدوتها الدخيلة بوبيه

وبعد ان انتهت الحفلات وودع نيرون والدته ، تقدمت اجريبين نحو السفينة التى أعدت للعودة بها وحدها تقديراً لمكانتها وغلوا فى احترامها

وصعدت الى ظهر السفينة ، ثم ألقت نظرة على السماء المصحية ، ثم دخلت غرفتها وتمددت على فراش وثير . وكان يصحبها وكيل أعمالها (جالوس) ووصيفتها (اسيرونيا)

لم تخاطبهما ولم تنبس شفتاها بكلمة

اسلمت خيالها الى الأحلام وانطلقت تتأمل وقد هدأ قلبها واستقرت عواطفها وحل الاطمئنان العميق فى نفسها محل الحسرة القديمة التى طالما عذبتها

وكانت السفينة تنساب فى رفق على صفحة الماء ، وصوت المجاديف يهدر وعطور الشواطىء تتصاعد وتملأ الجو ، والفتور اللطيف ينبعث من الليل ويرقد الاعصاب ويغرى بالنوم . وعلى حين فجأة سمع صوت هائل وكأن صاعقة انقضت فوق رأس اجريبين

سمع صوت تمزق مروع وتفتت وانشقاق وتحطم فنهضت اجريبين مذعورة ، ولم تكد تتلفت حتى سقط عليها سقف الحجرة وتناثرت قطعه وأصابت واحدة منها رأس جالوس فألقت به على الارض صريعا

وفرت اسيرونيا وهى تصرخ ، وأحست اجريبين أن لوحا من الخشب ادمي كتفها ، فلبثت لحظة جامدة ذاهلة ثم اسا ت الى الخارج وبحثت عن مكان أمين تلجأ اليه

وفى تلك اللحظة أبصرت الملاحين يفرون والسفينة تميل وتوشك أن تغرق ، واسيرونيا تضرب الهواء بقبضتيها وتهاوى وتسقط فى الماء فانحنت الامبراطورة وشقت بين المجاديف طريقا ثم تركت نفسها لتسقط هى الاخرى فى جوف الماء . وكانت تجيد السباحة وتعلم ان اليابسة قريبة وتثق بقوة عضلاتها وساعديها . ولكنها وقد شعرت بالمياه أرادت أن تلقى على وصيفتها نظرة أخيرة فتلفتت فأبصرت الوصيفة تصيح وهى تصارع الامواج وتنشد الخلاص قائلة :

— أغيثونى . أنا الامبراطورة

فأسرع بعض الملاحين وألقوا اليها حبلا فلم تكد تتعلق وتبرز

رأسها على حافة السفينة المتأرجحة حتي عاجلها الملاحون ضربا بالمجاذيف فهوت فى البحر جثة هامدة

منذاك ادركت اجريبين الحقيقة ، فلم تلتفت وغطست في الماء وتحركت تسبح بكل قواها ابتغاء الوصول الى الشاطىء

وكان نيرون فى قصره ينتظر ختام المأساة وهو يذرع الغرفة شاحب الوجه مغضن التقاطيع مرتعد الاطراف ، يخالس استاذه النظر ويحدق الى انيستوس ، ويخاطب نفسه بكلمات مبهمة كمن به مس

وانقضت ساعتان . وبغتة فتح الباب وسمعت جلبة وأصوات . فلم يتحرك نيرون وسدد الطرف نحو الرسول القادم

وسجد الرسول أمامه وحاول أن يتكلم فلم يستطع فأهاب به الامبراطور :

— انطق . .

فغمغم الرجل قائلا :

— مولاتى اجريبين أرسلتنى اليك . السفينة غرقت ولكن الامبراطورة نجت وظلت تسبح حتى أدركت الشاطىء . وقد التقطها الصيادون فى منطقة « بول » وهى تطلب الراحة ولا تريد أن تزعجك وترجوك الا تكلف نفسك عناء زيارتها

فصرف نيرون الرسول باشارة ثم غلق الابواب وتحول نحو انيستوس وهو ينتفض رعبا وقال :

— والآن ؟ الآن ؟ ما العمل ؟

فأجاب أمير البحر فى هدوء :

— المسألة بسيطة . لقد فشلنا فى هذه المرة

فصاح الامبراطور قائلا :

— ولكن هى ؟ أتكون قد أدركت ؟

— لا أعتقد

— اذن ما الذى يجب علينا ان نعمل ؟ . وهى ، فيم يمكن ان تفكر ؟

فتروى انيستوس وأنعم النظر لحظة ثم قال :

— لو تركنا لها الوقت فقد تفكر فى العودة الى روما . وقد تصرح بالجريمة إذا كانت قد فطنت اليها . . ومن يدرى فقد تنجح . قد تؤلب عليك الجيش ومجلس الشيوخ وقد تثير العاصفة فى وجهك

فالتفت نيرون نحو سينيكا وبوروس فالفاهما يتراجعان وقد عقد الرعب لسانيهما فقال فى شبه أنين ممزق :

— يا أصدقائى . . أنا فى حاجة اليكم . . لا تدعونى وحدى ! . . أنقذونى . . ماذا ؟ . ماذا يجب على أن افعل ؟

وتصور سينيكا الكوارث التى يمكن أن تنزل بالدولة لو كانت اجريبين قد تنبهت لما أريد بها . تصور الثورة والدماء وتقويض الصروح التى شادها لمجد الامبراطورية بواسطة نيرون . فتغلبت فى نظره مصلحة الدولة على واجب الدفاع عن حياة اجريبين التى استنكر الاعتداء عليها وبوغت بمعرفة المؤامرة التى دبرت للقيام بهذا الاعتداء فقال موجها كلامه للقائد بوروس :

— أتظن أن فى وسعنا اصدار أمر بالقتل الى الجنود ؟

فأجاب القائد بقوله :

— لن يطيعنا أحد منهم ، كلهم يقدس ذكرى البطل جرمانيكوس والد اجريبين

وصمت القائد برهة ثم أردف قائلا :

— انيستوس هو الذى دبر المؤامرة وهو الذى عليه أن يتمها !

وعندئذ انسحب المستشاران وبقى نيرون وأمير البحر . فأمسك الامبراطور بيد انيستوس وقال بصوت متهدج :

— ستنقذنى ، اليس كذلك ؟ أرأيت كيف انسحبا وخلفانى معك؟ نذالة ! . هى منهما نذالة ! . ولكن أنت . أنت ستنقذنى !

فنهض أمير البحر ودنا من نيرون وقال فى هدوء وثقة :

— نم مطمئن البال يا مولاى . سأسهر انا . وسأعمل من أجلك ! .

وانصرف مبتسما تاركا قيصر جاحظ العينين مذهولا . وبعد بضع دقائق سمع نيرون وقع حوافر جياد فعلم أن انيستوس قد سافر الى منطقة (بول) ومعه قائدان من قواد الاسطول هما هركولوس واولواريت

وكانت اجريبين فى غضون ذلك قد حبست نفسها فى قصرها الصغير الكائن فى تلك المنطقة ، وكانت ترتعد ولا تدرى مادا ينبغى عليها أن تفعل وأي المسالك تسلك والى أية خطة تلجأ . وفيما هى تفكر واذا بدوى هائل أصم أذنيها فأطلت من النافذة فأبصرت انيستوس يحطم باب القصر ويدخل

نهضت مرفوعة الرأس ناصعة الجبين عزيزة متأبية وتقدمت لاستقبال السفاحين وقد علمت أن كل شىء قد انتهى !

ولاح انيستوس على عتبة الباب فقالت :

— اقادم انت لارتكاب جريمة ؟

فلم يمهلها هركولوس وهوى على رأسها بضربة عصا . وإذ داك تقهقر اولواريت وامتشق حسامه ، فاستندت الامبراطورة الى الحائط وكشفت عن صدرها وصاحت :

— اضرب هنا !

فأغمد القائد سيفه فى صدرها حتى مقبضه . فتقلصت عضلات وجه اجريبين من فرط الألم وتمايلت على نفسها لحظة ثم سقطت على على الارض دون أن تنطلق من فمها صرخة ألم !

- ١٤ -

— الشمس ! . متى تطلع الشمس ؟

كان نيرون يردد هذه العبارة وهو يذرع الغرفة التى قضى فيها ليلته فى بابيس . وكان شارد البصر مكفهر الوجه مخيف السحنة يطرق برأسه تارة ويلوى يديه أخرى ، وقد عصف به وخز الضمير وانتابته الوساوس كرجل خولط فى عقله فجأة

وكان يقف ثم يرتعد ثم يتنقل فى الحجرة ، ثم يجلس ثم ينهض بغتة وينطلق كجواد أعمل المهماز فى خاصرته . وكان سنيكا ينظر اليه ويراقبه ويخشى أن تستولى عليه فكرة الانتحار

وحاول نيرون أن يكبح جماح أعصابه ويضبط خواطره الشاردة ولكن الطيف كان يجتاز فسحات خياله ويرغمه على ترديد عبارته :

— الشمس ! . متى تطلع الشمس ؟

ولاذ بالتصور ، تصور ما هو عليه من سلطان وما قد أصبح يستمتع به من ارادة مطلقة فغمغم قائلا : « العالم .. بوبيه »

ثم انتابته أزمة أخرى ، أزمة رعب حادة ، فاصطكت أسنانه وجعل يختلج ويردد سؤاله : « متى تطلع الشمس ؟ »

وظل يلوك هذه العبارة حتى انتهت الليلة الفاجعة التى علم فيها أن والدته قد فارقت الحياة

والواقع أن غريزة البنوة استفاقت فيه واجتاحت عقله وغشت على بصيرته وجعلت منه شبه حيوان مطعون يطارده الصياد ، ويجأر من فرط الألم

وكان نيرون يصارع جهده وخز الضمير . يحاول أن يفر من خيالاته ، أن يفر من نفسه ، أن يفر من الحياه فلا يستطيع

وعند ما لاحت له أولى أضواء الفجر تقهقر مذعوراً كأنه قد شاهد طيف أمه واضح اللامح جلى التقاطيع

فأسرع وارتمى على الفراش وولى الضوء ظهره . وفى تلك اللحظة سمع هتافا عاليا ثم التفت فابصر بورروس

وتقدم بورروس وحيى الامبراطور وقال :

— أفق من رقادك يا قيصر ! الجيش مقبل لاعلان ولائه لك وتقديم خالص شكره للآلهة التى حفظتك للامبراطورية !

وفى أقل من لمح الطرف انجابت السحب عن مخيلة نيرون وشعر بعظيم سلطانه وتناسى وخز ضميره وجعل يقول :

— أنا لم أقتلها .. بل دافعت عن نفسى .. دافعت عن مصلحة البلاد

وتوافد الأشراف والنبلاء والقواد وأمراء البحر يقدمون فروض الطاعة والولاء ، ويتبارون فى النفاق والكذب ، ويتجاهلون الجريمة ويحملون على ذكرى اجريبين ، ويروجون بين الشعب أنها هى المجرمة وأنها كانت قد تآمرت على حياة نيرون فأنقذته الآلهة من براثنها

وأعجبت هذه الفكرة نيرون فتشبث بها وأعلنها فى مجلس الشيوخ . ولكن نفسه مع ذلك لم تقتنع . كانت الرؤى تطوف بذهنه والخيالات تطوح بعقله والرقاد البرىء ينفر منه ، والراحة المنشودة التى التمسها فى قتل اجريبين تغادره فجأة وتخلفه وحيداً شريداً أمام الشبح الجاثم فى قرار خياله المريض

وترك بابيس ورحل الى نابولى . وهناك عاودته وساوسه فكان يفكر فيما حدث وينخلع بدنه رعبا . كان يقول :

— لو أن البحر كان قد ابتلعها ما عظمت الى هذا الحد آلامى . ولكنها أدركت ما أردت بها وشاهدت مصرعها بعينيها وكشفت للسفاحين عن صدرها ولعنتنى !

هذه الخواطر احتلت ذهنه فكان يحس كأن نصلا من فولاذ يخترق قلبه وأراد أن يطرد وساوسه ،لكن جثة اجريبين كانت تتمثل له بعد احراقها ، وكان رمادها يئن فى ظلام الليل ويطلب العدل والثأر

وفى غضون ذلك كانت روما ، روما المنافقة سريعة التأثر وسريعة النسيان ، تعمل فى سبيل مجده وهو لا يدرى

أجمع مجلس الشيوخ على وجوب إقامة صلاة يشكر بها الشعب آلهته التى أنقذت الامبراطور من غدر اجريبين ، ثم أمر بأن ينصب للالاهة مينرفا التى احتفل نيرون بعيدها ليلة خلاصه تمثالا يوضع بجوار تمثاله فى وسط دار مجلس الشيوخ ، ثم أمر فوق ذلك باعتبار يوم ميلاد اجريبين يوم شؤم على البلاد . وهكذا ساهم المجلس الموقر فى حركة النفاق العام

وعلى الرغم من كل ذلك لم تفارق ذكرى الجريمة أذهان عامة الشعب

خيل اليهم أن لعنة حلت على البلاد ، وأن عيون الآلهة انصرفت عنها . فسرى اضطراب غريب فى القلوب والأذهان وراجت إشاعات مخيفة وقال بعضهم ان الطبيعة تنكرت للانسان وضاعفت خوارقها . وقال بعضهم ان امرأة رومانية وضعت فى أحد المذاود ثعبانا ، وقال آخرون ان زوجة أحدالرعاة ضربها البرق بالصاعقة وهى بين أحضان زوجها

واتفق ذات يوم ان تلبدت السماء بالسحب وغام الجو واختفت الشمس وهبت ريح عاتية اقتلعت الاشجار وزعزعت قواعد البيوت ، فأيقن عامة الشعب ان هذه معجزات،وان الآلهة الساخطة تنذر بتدمير المدينة الخالدة ! ..

ولكى يخفف نيرون وطأة الرعب التى أحس ان الشعب يرزح تحتها ، بالغ فى إصـدار مراسيم العفو عن عدد كبير من المنفيين والمجرمين كأنما هو يطلب الصفح عما جنى . ولكن وخز الضمير أبى

الا ان يتعقبه فكان يرى محنى الظهر مطرق الرأس منهوك القوى

وكان لم يزل في الثانية والعشرين من عمره ، يحمل مع ذلك في عروقه مسكة حية من دم الشباب الحار ، فشرع يسيح لينسى . فسافر الى سورنتا ، وكوم ، وهركولانوم ، وبومباى ، وكابو ، عساه أن يجد الراحة ، غير ان الضجر استحوذ عليه والأسى تملك منه ، ومظاهر التهليل والتمجيد التى صادفها فى طريقه لم تستطع اخماد تلك النار المتأججة فى قلبه وعقله

ولما شعر الاتباع والاشراف بأن كل هذه الرحلات لم تنفس عن صدر نيرون ، خيل اليهم انه لو عاد الى روما واستفر فيها واستسلم لغرائز اللهو والطغيان فقد ينسى ويطمئن ، وقد ينفض عنه فكرة الانتحار التى كانت قد بدأت تخامره منذ حين

وأقنعوه بضرورة العودة فعاد ، واستقبلته روما استقبال الفاتحين ، فلم يكد يبصر هذه الوجوه الطافحة بشراً . وهذه الاذرع العارية المبتهلة ، وهذه الاعناق المشرئبة ، وهذه العيون المتقدة المتطلعة العابدة ، حتى استسلم كما توقع الاشراف لنشوة المجد والسلطة ، وتاقت نفسه لاغراق آلامه فى محيط اللذة والقسوة والعنف والطغيان

وكان الاستقبال آية فى الروعة . فخرجت جموع الممثلين والمغنين ومشت أمام الموكب ، وأقيمت المدرجات العالية فى طريقه ونصبت أقواس النصر محللة بالازهار وعلقت على المنصات أكاليل الورد وتهادت المحفة حاملة الامبراطور وهو يحيى الشعب رافعا يده المحلاة بالخواتم ، ملوحا بنديل فى اليد الاخرى ، ونظارته الزمردية المفردة مثبتة تجاه عينه يرمق بها الجماهير ، والورد يتساقط عليه

وفى وسط الهتاف والزئير الجنونى المروع صعد الامبراطور درجات الكابيتول ورفع صلاة الشكر لآلهة روما

ثم بدأت أعياد الشعب

- ١٥ -

كان العالم الرومانى يحتضر وقد أثقله عبء القرون الثمانية التى قضاها فى مختلف الحروب والفتوحات والمنازعات الداخلية، وانشاء النظام الجمهورى ، وتكوين أمثلة وطنية عليا ودين رسمى تحكم فى عقائد الافراد وفى مشاعرهم واحساساتهم وأخضعهم آخر الامر لخدمة الدولة . ولقد تعاقبت فى خلال تلك القرون أخطاء الروح الاستعمارية ، وانفتحت أبواب الامبراطورية لشتى الرذائل والنقائص التى تسربت من بلاد اليونان وبعض بلاد الشرق . ثم تضاعف هذا الانحطاط بانتشار نزعة المحسوبية بين الكبراء ، وتفشى الملق والرشوة ونسيان الفضائل التقليدية ، وزوال روح الدين الذى استحال الى مجرد رموز وطقوس لا أثر لها فى حياة الفرد اليومية

وكان قد انقضى ربع قرن على وفاة المسيح منذ دخل نيرون روما دخول الفاتحين

وكانت المسيحية قد تغلغلت فى أوساط العامة ، واعتنقها بعض الكبراء سراً ، ولم يحفل بها سواد الاشراف ونظروا اليها نظرتهم الى مختلف العقائد الشرقية التى كان يؤمن بها عدد عظيم من الشرقيين الذين نزحوا الى روما واستقروا فيها

وأما رجال الدولة فقد كانوا يتسامحون مع النصارى فى اجراء شعائرهم الدينية فى دائرة القانون ولكن النصارى حملوا حملة شعواء على أخلاق الرومان وعاداتهم وتقاليدهم وسخروا بآلهتهم وحقروها وتمنوا زوال العالم الوثني بعد ان لعنوه وسموه مملكة الشيطان على

الارض . وعندئذ بدأت السلطات تتعقبهم وتضطهدهم فكانوا يهرعون الى السراديب والمغاور ، ويتلاقون فيها ويقيمون شعائر دينهم فى ظلماتها وقد زادهم الاضطهاد تشبثا بعقيدتهم ويقينا بانها كلمة الحق وكلمة الله

ولم يكن الاضطهاد قد بلغ أشده فى الفترة التى قتلت فيها اجريبين ولم تكن المسيحية قد اتخذت بعد طابعها الثورى الخطر . وكان بعض تعاليمها معروفا من الفلاسفة الرواقيين وعلى الأخص من سنيكا

وهكذا كانت النصرانية تعمل فى الخفاء وتبشر بنزعة روحية جديدة تتعارض مع النزعات السائدة فى الدولة ، بل كانت تسعى لخلق نظام جديد ينهض على انقـاض النظام الرومانى الآخذ فى التداعى والانهيار

ولو لم تـكن المسيحية قد ظهرت إذ ذاك لظهر غيرها بتأثير رد الفعل الذى أحدثه انحطاط الرومان

والواقع أن الرعب الذى استولى على الناس فى أواخر عهد نيرون واضطراب الامبراطور نفسه بعد مصرع والدته وتنقله من بلد الى بلد فراراً من وخز الضمير ، وحاجته الى التسلية والتفريج عن النفس ، وتهالك المتملقين عليه واشادتهم بمجده ورغبتهم فى تأليهه ، كل أولئك أشاع الفوضى فى دوائر الحـكم ، ومكن للنصرانية من الرسوخ والتوطد فى نفوس عامة الشعب

وكان نيرون ما يزال فريسة وخز الضمير ، لا يعرف الراحة ولا يطمئن الى الحياة ولا يستطيع طرد الاشباح التى كانت تحتل ذهنه وتعبث بعقله وتشرده فى ابهاء قصره محتقن الوجه زائغ البصر منفوش الشعر يصرخ ويهذى كمجنون

وأحس الاشراف والاتباع أن فلسفة سنيكا ونصائح بورروس لم تعد تجدى نفعا فابغضوا الرجلين وحولوا عنهما قلب قيصر ، وشرعوا يتزلفون الى الامبراطور ويبالغون فى تمجيده ويشيرون اليه من طرف خفي بالاقبال على الملذات والتفانى فيها وتنظيم المآدب الـكبيرة والحفلات

الشعبية العظيمة التي تنسيه شقاءه وترفه عن صدره وتشعره بسلطانه وتصرف في نفس الوقت أنظار الشعب عن الواقع المؤلم وتزيده تعلقا بالامبراطور وحبا له

وكان نيرون يهوى المشاهد المسرحية كسباق المركبات تجرها الجياد المطهمة ويتولاها أبطال الرياضة ، وحفلات المصارعة الرائعة ، وظهوره أمام الشعب بمظهر الشاعر الفنان ينشد قصائده العصماء بصوته الرخيم ويوقعها على قيثارته ويحس وهو يلقيها أن السلطة والعبقرية قد اجتمعتا في ذاته الالهية الخالدة

ولما كان سنيكا يأخذ عليه هذا العبث ويراجعه ويلفت نظره الى واجب الاحتفاظ بكرامته ، كان نيرون يعرض عنه ويستنكر تدخله فيما لا يعنيه ، ولا يتردد في اشعاره بأن كل نفوذ له قد زال وأن الاله فويبوس ابولون نفسه كان يعزف على القيثارة في فسحات الأولمب

واقتدى الشعب بسيده ، وغمرت روما موجة من الفساد ، فشاع الفجور بين السيدات وفشت الخنوثة بين الرجال ، وأطلقت الغرائز من عقالها ، وساد حكم اللذة ، وبات الشعب لا يفكر الا في الافراح والأعياد وضروب اللهو وأفانين التمتع . هذا وجماعة النصارى تلتف حول الرسول بولس وتتسلل في المغاور والسراديب وتعلن في بعض الاحيان عن سخطها المتأجج على مملكة الشيطان وتنذرها بالاضمحلال العاجل والفناء القريب

وتطورت رغبة التفريج في نفس نيرون ، واستحالت الى ارادة مرضية في طلب اللهو من طريق العنف واحداث الألم ورؤية الجماهير هائجة وسماعها تصرخ صرخات جنونية محمومة شائنة

وكان يعلم ان ملاعب الرياضة هي التي تجذب جماهير العامة

فأراد ان يجتذب اليها الأشراف أنفسهم فحتم عليهم النزول اليها وفرض عليهم القيام بألعاب يخجل منها المهرجون فكنت ترى الامبراطور والاشراف وعامة الشعب يتبارون في تلك الملاعب ويقومون بحركات

واشارات وأوضاع وألاعيب تثير النفس خجلا واشمئزازاً وتشيع فى المتفرجين نوبات تحمس تشتد أحيانا حتى تبلغ حد الجنون

وظل نيرون يسعى بجد فى طلب اللذة الجديدة ثم يعافها فيسعى الى لذة أخرى . ثم يطلب الى الأسر العريقة فى النبل ان تنزل بنفسها الى الملاعب ، ثم يتبرم بهذه اللذة أيضا ويبحث عن سواها حتى انتهى به الامر الى التضجر من قصره وبلاطه فامر بان تبنى له مدينة مسرحية خليقة بامبراطور شاعر فنان اله !

وتلفت حوله فأبصر نفسه يعيش فى قصر رائع نقشت جدرانه بالذهب ، وأبصر روما بأحيائها المظلمة وأزقتها القذرة وبيوتها الشعبية المتهدمة لا تتناسب فى مظهرها مع ذلك القصر ، فقام فى نفسه أن يهدمها ويشيد على أنقاضها مدينـة عظيمة أخرى تحمل اسم نيروبوليس . . .

واتفق ذات مساء أن لاح فى سماء روما مذنب أحمر اللون ، فقلقت الخواطر وجزعت القلوب ، وفسر الناس هذه الظاهرة بأن البطل روبيليوس بلوتوس الطامع فى الملك وأحد أنصار اجريبين القدماء يهدد نيرون ويتطلع الى العرش

فلم تكد هذه الاشاعة تبلغ مسامع نيرون حتى نفى بلوتوس الى آسيا . ولكى يدلل على شجاعته واطمئنانه الى المستقبل وحماية الآلهة له ، أقدم على الاستحمام فى إحدى البحيرات المقدسة ، فلم تسقط عليه صاعقة من السماء ، بل ابتسم له الحظ وفازت جيوشه فى أرمينيا وكللت هامته مرة ثانية بالغار

وكان القائد والمستشار بورروس قد أعرب فى صراحة عن استيائه الشديد من مسلك نيرون ولم يكن متيقظا حذراً كزميله سنيكا ، فنقلت آراؤه الى الامبراطور فحقد عليه أشد الحقد . وكان بورروس مصابا بالتهاب فى الحنجرة فأرسل اليه نيرون طبيبه الخاص وسرعان

ما صدع الطبيب بالأمر ومس حلق بوروس بريشة غمست فى السم وقضت على حياة القائد شر قضاء

وحينئذ أسندت قيادة الجيش الى فنيوس روفوس وتيجيلان وكانا من أعداء سنيكا فاثارا البلاط عليه ونسبا اليه أخطر التهم وقالا إنه يملك ثروة تفوق ثروة قيصر ، وانه يجمع المال لأغراض خبيثة وان أتباعه يجرؤون على الزعم بأن عبقريته الأدبية أبلغ وأصفى من عبقرية نيرون وأنه بدأ يقرض الشعر وينازع مولاه دولة الأدب والفن

وشعر سنيكا بما يدبر له ، وكان يدرك حق الادراك أن ليس فى العالم قوة يمكن أن تحميه من نزوات نيرون ، فطلب الى مولاه اعفاءه من الخدمة ولكن الامبراطور أصر على الرفض فلم يلح سنيكا فى الطلب وأيقن أن ساعته آذنت بالدنو فصمت ولاذ بفلسفته وجعل يتأهب لاستقبال الموت فى صفاء وسكون . وكان الامبراطور ما يزال يخشى نفوذ بلوتوس و (سيلا) ويعتقد أنهما يسعيان للفوز بالعرش فتخلص منهما بأن أوعز بقتلهما ، ثم استجمع قواه وتهيأ للتخلص أيضا من امرأته أوكتافيا توطئة للاقتران بعشيقته بوبيه

ولم تكن أوكتافيا قد أعقبت خلفا فاتهمها بالعقم ، وشرع يفكر فى احتمال الطلاق منها . وكان فى وسعها الدفاع عن نفسها ومصارحة الجميع بأن الامبراطور لم يقربها ولكنها آثرت الاغضاء والتجاوز رغبة منها فى ترك البلاط حيث كانت عشيقة نيرون تعاملها معاملة الدخيلة وحيث كان شبابها يذوب ويضمحل وهى لم تبلغ العشرين من عمرها وهكذا آثرت أوكتافيا حياة الحرية وملء نفسها الأمل بتجديد مستقبلها والفوز بحقها فى الحب والسعادة على يد رجل آخر

- ١٦ -

لم يثر مصرع بريتانيكوس واجريين وبوروس وسيلا أى غضب فى نفس الشعب الرومانى . ولكن طلاق أوكتافيا أسخط جماهير العامة وأشاع فيها روح الانتقاض والتمرد

أحس الشعب ان أوكتافيا ظلمت . وكان يرثى لحال تلك الامبراطورة الطيبة المتواضعة المنبوذة التى غدر بها قرينها وسامها الذل باتخاذ عشيقة متغطرسة تميل إلى اليهود ميلا واضحا وتوشك أن تستبد بقيادة الدولة

فلما طردت أوكتافيا من البلاط ونودى بالحسناء بوبيه امبراطورة ثار شعور الشعب وبدأت كتل الجماهير تتجمع فى (الفوروم) وتتظاهر ضد قيصر

فذعر نيرون وأرسل أتباعه يروجون بين الشعب ان أوكتافيا كانت خليلة أحد الموسيقيين ، وان هذا الموسيقى كان عبداً رقيقا ، وانه يدعى أوكيروس ، وانه فر من روما فجأة ، وان رجال الشرطة يتعقبونه لينزلوا به العقاب الصارم الذى يستحقه

ولكى يبرهن الامبراطور لشعب روما على صدق مزاعمه ، نظم رواية مسرحية مروعة الحوادث ، فجاء ببعض أعضاء مجلس الشيوخ وبعدد من الأشراف والنبلاء ، واستقدم وصيفات أوكتافيا ، ثم أمر الجلادين بتعذيبهن كى يعترفن بالجرم الذى اقترفته مولاتهن

وكانت بوبيه تشهد حفلة التعذيب ونيرون وتيجيلان بجوارها ،

وكانت كل وصيفة تصرخ من فرط الألم وقد اكتوى جسمها بالنار وتصاعدت منه رائحة حادة تأخذ بالخنق

ومع ذلك فقد أبى بعضهن الاعتراف بذنب ملفق فثارت ثائرة نيرون وأمعن فى تعذيبهن حتى توافرت له الأدلة التى يريد ، وعندئذ أصدر أمره بان تنفى أوكتافيا الى كامبانى وان تسهر عليها طائفة من الحرس . وان تعامل برغم جرائمها معاملة سيدة كانت فيما مضى امبراطورة على الرومان

ولكن الشعب لم يقتنع ولم تخدعه هذه الرواية فظل يحتج على عمل قيصر ، وظل يحمل أحسن الذكريات للمنكودة الحظ أوكتافيا،وظل يتظاهر ضد نيرون ويعقد الاجتماعات المحرمة ويعرب عن سخطه بشتى الوسائل ، فاضطرب الامبراطور ونزل على حكم الظروف وأشاع انه قد أبدل أمره السابق وعفا عن أوكتافيا وسمح لها بالعودة الى روما

ولم يكد يطرق هذا النبأ مسامع الشعب حتى تألبت الجماهير وشرعت تزحف فى اتجاه الكابيتول وتقدم قرابين الشكر للآلهة وتجلل تماثيل أوكتافيا بالورود وتحطم رسوم بوبيه وتتوعدها بالعقاب العاجل والموت القريب

واتفق فى احدى الليالى ان حاصر الجمهور قصر الامبراطور وتصاعدت الصيحات المهددة الى أذن قيصر ، فانخلع فؤاد نيرون وأحس ان الثورة على الابواب ، وأدرك ان لابد من قمعها بأية وسيلة والا استهدفت حياته للخطر المحقق ، وأشار على فابيوس روفوس وعلى تيجيلان بتفريق الجماهير والسعى جهد الطاقة لحق الاضطراب قبل أن يستفحل

وصدع الرجلان بالأمر فاطلقا الجيش على الشعب ، فوقعت مذبحة هائلة قتل فيها جمع غفير ، ولاذ الى الأزقة من استطاع وحراب الجند تتعقبه وتوسعه طعنا وتجريحا

وقمعت الفتنة وأنقذ نيرون ، ولكن الاهانة استقرت فى قلب

بوبيه وحفزتها للأخذ بالثأر . فلم تتباطأ ولم تتلكأ وأسرعت من فورها الى الامبراطور وقالت وشرر الحقد يتطاير من عينيها :

— لقد أضعت ملكك ! .. عفوت عن أوكتافيا فعرضت بنفسك لشتى المهالك ! . ان روما فى صفها ، ولسوف تراها بعد قليل فى الفوروم صحبة الرجل الذى اختارته ليحل محلك !

فجزع نيرون وفقد صوابه وتلفت حوله فأبصر تيجلان يهز رأسه ويغمغم قائلا :

— تلك هى الحقيقة !

فتحول الى انيستوس وقال وهو يرتجف :

— وما رأيك أنت ؟

فأجاب المجرم وهو يبتسم :

— أتريد ان انقذك مرة أخرى ؟

فصاح نيرون باسطا ذراعيه يقول :

— أنت نعم الصديق الوفى . وليس غيرك من ينقذنى . فمر وعلىّ السمع والطاعة

فابتسم انيستوس كعادته وقال :

— أود اعتزال الحياة العامة . فهل تمنحنى جزيرة سردينيا ؟

فأجاب نيرون قائلا :

— هى لك منذ الآن !

فتهلل وجه انيستوس وأشرق جبينه وتقدم فى بطء ثم ابتسم ثم قال :

— أعلن فى الملأ صباح الغد ان أوكتافيا كانت عشيقتى وأنها توسلت بهذه العلاقة لوضع يدها على الاسطول الذى اتولى قيادته ابتغاء تجويع روما والانتقام من قيصر ! . هذه التهمة تكفى للقضاء عليها وتبرير موتها فى نظر الشعب

وراقت الفكرة لنيرون فاعلنها فى اليوم التالى وفى نفس اللحظة التى أبحر فيها انيستوس الى سردينيا

ولم تشأ بوبيه أن تترك للشعب فرصة التفكير ، فأرسلت الى أوكتافيا تأمرها بالسفر الى جزيرة بانداتاريا ، وهناك أوعزت الى الجنود باقناع المرأة التاعسة بوجوب الانتحار . ولكن أوكتافيا تشبثت بالحياة واستجدت الرحمة فعيل صبر الجنود ، وانقض عليها بعضهم وطعنوها بالرماح ، ثم قطعوا شرايين معصميها ، ولما أبصروها تتخبط وتتحشرج وتأبى أن تموت ، القوا بها فى قدر كبيرة ملئت بماء ساخن ، ثم جذوا رأسها وحملوا الرأس الى روما وقدموه الى الامبراطورة

وفى تلك اللحظة فقط استضاء محيا بوبيه وهدأ قلبها واطمأنت نفسها وعلت فمها الجميل ابتسامة رقيقة خلبت لب نيرون إذ أبصرها لأول مرة !

- ١٧ -

وتقلص ظل الماضى واختفت المخلوقات التى كانت تهدد مستقبل الامبراطور

اختنق بريتانيكوس واختفت اجريبين ومات بوروس وقضى على أوكتافيا ولم يبق على قيد الحياة ممن أحاطوا شباب نيرون غير معلمه وأستاذه الفيلسوف سنيكا

وهكذا شاع الفراغ حول قيصر وتوطدت الارض تحت أقدام زوجه بوبيه ، فلجأ اليها ولاذ بها وخنق آلامه فى حبها ، وأغرق بين أحضانها عذاب ضميره المكلوم

ووضعت بوبيه طفلة استقبلها نيرون بمظاهر الفرح العظيم وأحس نحوها شيئا من عاطفة الأبوة ، وخيل اليه أنه سيكفر بواسطة حبها عن آثامه الماضية ، ولكن القدر خيب آماله فماتت الطفلة وكان موتها سبيلا الى اشتداد أعراض الجنون التى بدت على قيصر بعد مصرع اجريبين

والحق أن وفاة الطفلة أفقدت نيرون البقية الباقية من روحه المعنوية ، فاستحوذت عليه الكآبة وملكه الضجر واستبدت به الوساوس وغمر نفسه ضرب غريب من التبرم بالحياة والحقد عليها والاستخفاف بمسئولياتها ، فاستسلم بجمعه لشهواته وراح ينشد فيها العزاء والسلوى

ثم تضاعفت أعراض جنونه فكان يعرب عن احتقاره لشعب روما ويقول ان الرومان لم يفهموا شعره وفنه ، وانه لو لم يكن امبراطورهم لسخروا منه ، وأن واجب عبقريته يقضى عليه بالرحيل الى بلاد اليونان

حيث تقدر مواهبه ويعترف بالوهيته التي يرتاب فيها أهل روما

وتأثر بنزعة بوبيه اليهودية وحديثها المتواصل عن روائع بلاد الشرق ، فكان يهدد من حوله بقوله إنه سوف يغادرهم وينشىء فى الشرق امبراطورية عظيمة ويعبد آلهة جديدة ويقوم هو نفسه بدور المسيح المنتظر

واتبع القول الفعل ، ورحل الى نابولى ثم عرج منها الى بينفانت، ولكنه قبل أن يبحر الى بلاد اليونان ، ثاب الى رشده ، واستقر رأيه بغتة على العود الى روما ، فعاد وأصدر بيانا قال فيه إن مصلحة الشعب تقتضى وجوده وان حبه الخالص لشعبه هو الذى عجل بعودته الى أرض الوطن

ولكى يحتفل بهذه العودة أقام الحفلات الشائقة فى ميدان مارس وفى الفوروم وفى الكابيتول ، فكانت أيام لهو شائن فظيع تهالك عليها الرومان ، وفتنوا فيها ، واستنكرها النصارى واتخذوا منها ذريعة أخرى للطعن فى قيصر والحملة على آلهته وانذار مملكة الشيطان بالاضمحلال والفناء

وراق لنيرون بعد ان عربد فى تلك الحفلات ما شاءت غرائزه المنحرفة وأعراض جنونه المخيف ، أن يخلو مع صديقه تيجيلان فى قصره الكائن بانتيوم طلبا للراحة

وإنه ليتحدث الى صديقه فى هدأة القصر ، وذكريات الأمس تطوف به ، وجمال الطبيعة يكتنفه ، وتعب اللهو والعربدة يرخى عضلاته كخمر ثقيلة النشوة ، إذا برسل يدخلون عليه ، ويتقدم واحد منهم وهو يرتجف وينبئه بأن النار قد شبت فى الحوانيت المجاورة لملعب الرياضة ، والغاصة بالاقمشة وبراميل الزيت ، وأن الريح العاصفة زادت النار فى روما اشتعالا وتوشك ان تمتد بها الى الاحياء الكبيرة العامرة بالمباني والآهلة بالسكان

لم يضطرب نيرون أول الأمر ولكنه عندما صعد الى سطح القصر

وشاهد الافق الدموى يسطع من بعيد ، اختلج وزايله سكونه وصاح وقد اندلعت عيناه قائلا :

— من ذا الذى ارتكب هذا الجرم الذى يفوق حد التصور ؟

فقال الرسول :

— ومن يدرى يا مولاى ؟ لا بد أن يداً أثيمة أشعلت النار فى روما اذ كيف يمكن أن تشب الحرائق في ثمانية أحياء مختلفة

فأطرق نيرون لحظة ثم انتفض من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ثم جالت بخاطره فكرة جمد لها كأنما قد انقضت عليه صاعقة ، ففغر فمه كأبله ، ثم قال :

— يلوح لى ان الذين أشعلوا تلك الحرائق هم أولئك الخوارج دعاة الدين الجديد

وتملكته الفكرة فصرخ :

— اذا كان اله النصارى يتحدانى فانا متأهب لمنازلته وسوف نرى لمن يكتب النصر ! . . ومن يدرى فقد تكون هذه الكارثة مقدمة لبعث روما وتجديدها فلقد برمت نفسى بأزقتها المظلمة وأحيائها القذرة وبيوتها الخفية المتداعية حيث يجتمع كل افاق وكل مجرم ! الا ان النار التى أشعلوها ستطهر روما وتبعثها كائنا جديداً يفيض جمالا وحياة . . اذهب . . عد من حيث جئت و . .

وتمهل نيرون ولم يتم كلامه ثم ضم فكيه وقبضتيه ثم رفت أهدابه ثم صاح فى جنون يقول :

— اذهب وكن ماهراً ! يجب أن تستمر النار فى شبوبها ، يجب أن تمتد وتلتهم روما بأسرها . . أريد ان تطهر النار هذه الارض الملوثة وتستأصل منها الديدان التى تنخرها

وأسرع الرسول وقد تلقى الأمر بحرق عاصمة الرومان وظل

نيرون جاحظ العينين يحدق الى الفضاء وقد أخذ بلبه خيال روما فى حلتها القشيبة الرائعة !

ودامت الحرائق ستة أيام بلياليها

وعاد نيرون الى العاصمة عندما علم ان النار قد امتدت الى قصره والتهمته

عاد لاغاثة المنكوبين ففتح لهم أبواب حدائقه الخاصة ، وجلب اليهم كميات وافرة من الذخيرة ، وخفض أسعار القمح ، وبذل قصاراه لتخفيف وطأة الرعب الذى ساد بين الجماهير . ولكن هذه الجهود ذهبت أدراج الرياح ، فتعاقبت الكوارث وتكدست الخرائب وأحس الشعب أن لعنة الآلهة قد حلت على روما فبدأ يسخط ويتذمر ويتهم نيرون نفسه بالجريمة تارة ، ويلصقها بالنصارى تارة أخرى

وكانت المدينة قد استحالت الى كومة رماد ، وتهدمت التماثيل وتقوضت المعابد وتداعت الآثار ، وأصبحت الأرض شبه صحراء مأهولة بقوم شبه سكارى تشردوا فى العراء وارتفعت أصواتهم تطلب الخلاص والنجدة

وإذ ذاك لجأ نيرون الى مهندسيه وأمرهم بانشاء مدينة جديدة ثم جلب جيشاً من العمال شرع فى تخطيط الطرق وتنظيم الميادين وتجفيف المستنقعات وتشييد المبانى الحجرية وتجميل روما بمختلف التماثيل

وكان الامبراطور مخلصا فى رغبته تدفعه الى تحقيقها نزعته الفنية المتأصلة ، وكان يشعر بأنه قد استخدم الحرائق التى شبت ولم يحدثها أو يوعز بها ، وكان مستريح الضمير لأن الصدفة عاونته على بعث روما وتجديدها . ولكن الذين أبغضوه واستنكروا جرائمه السالفة واستهولوا حياته الخاصة المنكرة ، أبوا الا أن ينتهزوا الفرصة ويعززوا اعتقاد الشعب بان الامبراطور نفسه هو الذى أشار بحرق روما خضوعا لنزواته الفنية الطائشة ونزولا على حكم عقله الأخرق المجنون

هذه التهمة أثارت غضب نيرون وضاعفت خوفه على عرشه

وحياته فاراد ان يتقيها وأن يلصقها بالنصارى أعداء الدين الرسمى وأعداء آلهة الرومان لا سيما أنهم كانوا فى نظر أغلبية كبيرة من الشعب موضع الشبهة من زمن بعيد

وعقد العزم على الثأر لنفسه وكرامته من النصارى ، ووطن النية على افتتاح المدينة الجديدة بحملات تعذيب هائلة تحول عنه أنظار الشعب وتكسبه اعجاب الجماهير وتنقذه من تلك الفئة التى تهدد بمعتقداتها وحدة الدولة

وكان اضطهاد فظيع لا مثيل له

عفى عن اليهود أصدقاء بوبيه وألقى القبض على جماعات النصارى وزج بهم فى السجون كالحيوانات ثم سيقوا الى ملاعب الرياضة حيث أطلقت عليهم الضوارى ومزقت الآلاف منهم وسط هتاف الجمهور وتهليله للامبراطور

وكان الجند يصبون عقب التعذيب سيول الزيت على جثث المعذبين ويحرقونها فتتصاعد منها النار كأنها مشاعل وتضيء جوانب الملعب حيث نيرون فى مركبته الامبراطورية يقبض على أعنة جياده ويتأهب للسباق ، والريح تعبث بشعره وتضفى عليه حلة رائعة من ألوهية وخلود

ولكن هذا الاضطهاد زاد النصارى إيمانا وعزما وثباتا وتضحية ، كما ضاعف عدد المعجبين بهم والمعتنقين دينهم ، وعدد الساخطين على نيرون والمتنبئين بقرب انهيار روما مدينة الفسق وينبوع الفجور ومملكة جهنم !

- ١٨ -

ودام حكم نيرون بعد ذلك أربع سنوات كان فيها مثال الطاغية السفاح المعتوه . يضع جرائم فوق جرائم ، ويهيل دعارات فوق دعارات ، وقد فقد عقله وأسلم نفسه لكل رغبة أو شهوة تطرأ عليه

وحينئذ فكر بعضهم فى التخلص منه وتحرير الامبراطورية من طغيانه والسعى لتجنب ثورة الجيوش الناقمة المرابطة فى بلاد الغال وفى اسبانيا

والواقع أن تلك الجيوش كانت تخضع لقوادها لا لمجلس الشيوخ وكان يخشى أن تنادى بأحد أولئك القواد امبراطوراً ثم تزحف بغتة الى روما فتصطدم هى أو سواها بقائد آخر من قواد جيش الشرق يطمع الى العرش أيضا فتنشب الحرب الاهلية ويتداعى بين عشية وضحاها صرح الامبراطورية الرومانية بأسرها

تجاه هذا الخطر دبرت مؤامرة حاك أطرافها جماعه من فرسان الامبراطورية على رأسهم القنصل لاتيرانوس والشاعر لوكان وسافينوس وافرانيوس وكنسيتانوس من اعضاء مجلس الشيوخ ، وسنسيو أحد أصدقاء نيرون المقربين

واجتمع هؤلاء الاشراف ودبروا الخطة وأحكموا وضعها ولكن المرأة ، المرأة الثرثارة النزقة ، تدخلت بينهم واحبطت المؤامرة من حيث لا تدرى

كان لأحد المتآمرين عشيقة جميلة تدعى ايبكاريس ، وكانت هذه الحسناء تحب أميرا من أمراء البحر يدعى بروكولوس فأرادت أن

تشركه فى المؤامرة كى تقاسمه السلطة فيما لو نجح المسعى وقضى على الامبراطور . غير ان بروكولوس رأى من مصلحته ان يتملق نيرون ويضرب المتآمرين فاتصل به واعترف له بكل شىء ، فذهل قيصر ولم يصدق سمعه وتملكته ظاهرة نفسية غريبة دهش لها بروكولوس ولم يكن قط يتوقعها

ارتاب نيرون فى صدق هـذا النمام الواشى ، وتريث واتأد ، وخاف أن يرتكب سلسلة جرائم أخرى تجهز على سمعته بين الشعب ، فآثر التذرع بالقوة المعنوية والظهور بمظهر المطمئن الواثق ، وصرف النظر عن خصومه ، ومقابلتهم بالكبرياء والترفع والسخرية وعدم الاكتراث

اكتفى باعتقال الحسناء ابيكاريس وأدرك المتآمرون انه وقف على سرهم وبدل أن يتراجعوا استجمعوا قواهم وتحفزوا للعمل واستقر رأيهم على أن يغافل أحدهم نيرون فى اثناء الاحتفال بعيد الحصاد ثم ينقض عليه ويمسك بتلابيبه بينا يتقدم صديقه القديم فلافيوس سافينوس ويطعنه فى ظهره بنصل حاد

وارتضى فلافيوس القيام بهذه المهمة ، ولكنه لفرط تأثره باح بها لرجل من أتباعه يدعى ميليكوس كان عبداً ثم حرره ، فخشى العبد عاقبة الصمت ، وعاقبة التعذيب المنتظر ، وتطلع هو الآخر الى المال والنفوذ ، فأسرع من فوره الى ايبافروديت سكرتير نيرون وصارحه بما يعلم فاقتاده السكرتير الى مخدع قيصر ،وهناك ردد ميليكوس عباراته في لهجة ثابتة ومنطق رصين ، ثم كشف عن صدره وأبرز الخنجر الذى كان قد سرقه من سيده والذى كان فلافيوس قد اعتزم اغماده فى ظهر قيصر

عندئذ صاح نيرون قائلا :

— اقبضوا على فلافيوس وسوقوه الى هنا !

فارتعد ميليكوس وغمغم قائلا :

— هناك متآمر آخر يدعى فاتاليس اشترك مع مولاى في الجريمة فأصدر الامبراطور أمره بالقبض أيضا على فاتاليس ثم حقق مع الرجلين فتبينت له الحقيقة فبهت ، وانخلع فؤاده ، ومازال بفلافيوس وصاحبه يحاورهما ويهددهما ويمنيهما بالعفو حتى باحا بأسماء المتآمرين جميعا ولشد ما ذهل نيرون عنـد ما أدرك أن الذين تربصوا بحياته هم أعز الناس عليه وأقرب الأصفياء الى قلبه ، ولـكنه لم يصغ لصوت عواطفه واعتقلهم وأجبرهم على الاعتراف ولم يقدر منهم سوى الغانية ايكاريس التى عذبت وجلدت وحطمت أعضاؤها وكواها الجنـد بالنار وأسالوا دمها فاحتملت ، وصبرت وماتت دون أن تنبس بكلمة ! . . .

وكان من أثر الـكشف عن هذه المؤامرة ان اشتد حقد الشعب على نيرون وبات كل فرد يخشى على حياته ويخاف ان يفاجأ ذات يوم بتهمة . فـكان الناس يعيشون فى رعب وهلع ، والطغيان يهددهم ، ونزوات قيصر تقض مضاجعهم ، ولا أمل لهم فى خلاصهم وخلاص البلاد من هذا المجرم المعتوه

ودب الرعب فى قلب نيرون نفسه فوضع الحرس على أبواب مخدعه وعزز الحامية عند أسوار روما وأغلق أبوابها وعهد الى الجنود المرتزقة من الأفريقيين والجرمان فى القبض على كل من تقع عليه أية شبهة

ونـكل الجند بالناس وأودعوا السجن كل من شوهد يتحدث أو يبتسم الى أحد المتآمرين ، فغصت السجون بالابرياء وانتحر بعضهم وقتل منهم عدد كبير ، وشاء متآمر غادر لئيم أن يصيب الفيلسوف سنيكا ويقضي على أعظم أعوان نيرون ومستشاريه ، فاتهمه بالاشتراك فى المؤامرة فصدر الامر إلى الفيلسوف بالانتحار فتقبله باسما وانطلق الى داره فجمع أصدقاءه وتلاميذه وجرح بخنجر عروق بدنه فسال دمه ومات قرير النفس ناعم البال

وهكذا فعل (بترون) الشاب الرشيق والأديب الألمعى الذى اتهم

بالتفوق على نيرون فى الاناقة والتجمل اذ اقتدى بالفيلسوف سنيكا وانتحر خشية ان يقتل

ثم توالت حوادث الاعتقال والتنكيل والاعدام وأصيبت أكبر الأسر فى أعز أبنائها وسحقت الارستقراطية الرومانية سحقا وغمر البلاد حكم ارهاب فظيع ولاح شبح الموت فوق المدينة الخالدة

وأما نيرون فقد ظل فى قصره وحيداً تحرسه طائفة من الجند الاجانب ، ويهيب به صوت الضمير فى أعماق الظلام ، فينفر النوم من عينيه ويسهده طول ليله ، ويلقى به فى غيابة عذابه بين أشباح قتلاه ، هذا ومجلس الشيوخ يجتمع ويتداول ويبحث فى اقتراح قدمه بعض القناصل الجدد فى وجوب تكريس معبد لنيرون واطلاق لقب الألوهية عليه ! . .

- ١٩ -

أحس نيرون الاله انه ليس باله ، وان الحياة أقوى منه وان الموت واقف له بالمرصاد

فقد الشعور بالأمن ، وكان كلما ألقى القبض على انسان أو ارتكب جريمة جديدة ، ساقه الخوف من العواقب الى اعتقال أناس آخرين وارتكاب جرائم أخرى

وهكذا كانت أحكام الاعدام والنفى والتشريد تنقض من بلاطه على رؤوس رعاياه أشبه بصواعق الاله جوبيتير

وكان ما يزال فى روما عدد كبير من أولئك الفلاسفة الرواقيين الذين يمجدون الفضيلة ويحتقرون الألم ويهزأون بالمطامع الدنيوية ويتطلعون إلى مثل روحى أعلى ويصدرون على سلوك نيرون أحكاما قاسية صارمة ، فبرم الامبراطور بهم وجزع منهم وطاردهم ثم أعدم بعضهم وزج بآخرين فى ظلمات السجون ، فذبلت وماتت أجمل زهرة كانت قد أينعت تحت شمس امبراطورية الرومان

ولم يستطع نيرون اخفاء عوامل ألمه ، وكبح جماح تصوراته ، وطرد أشباح ضحاياه من فسحات فكره ، فكان ذهنه حافلا بالأوهام ، مختلا بالوساوس ، يستغرقه التأمل الاجوف وتنهكه الرؤى الدامية وتجرد احساسه وعقله من كل رجولة وكل إرادة وكل حياة

واستحال على مر الايام الى طفل حانق لا يعرف أسباب حنقه ، وكان منظره يثير الاشمئزاز ويبعث على السخرية

ولقد سمحت الامبراطورة بوبيه لنفسها ذات مرة بتعييره والهزؤ

بخيالاته فما كان منه الا ان انقض عليها وأوسعها ضربا وركلا حتى باتت أشبه بالجثة الهامدة تحت قدميه . ثم تنبه فاستهول ما بدر منه ، فترك القصر هائما على وجهه ثم فر من روما ويمم وجهه شطر مدينة نابولى. وهناك تلقى النبأ بان الجيوش الرومانية المرابطة فى بلاد الغال شقت عصا الطاعة ونادت جهرة بسقوطه

وكان ممدداً على الوسائد الحريرية فى أحد مخادع قصره الصغير فى (ميزين) ، فتحرك وفتح عينيه وبعد ان ألقى نظرة طويلة على الرقعة التى ناوله اياها الرسول ، تصاعدت من صدره أنة عميقة وتأوه وقال وقد شحب وجهه شحوب الموتى :

— الخيانة تطاردنى . والقائد فندكس الذى كنت أظنه من خلص أصدقائى يصارحنى فى وقاحة منكرة بأن جيوشه أعلنت سقوطى وجاهرت بالتمرد والعصيان

وظل لحظـة قلقا مقطب الحاجبين ثم صاح فجأة بسكرتيره ايبافروديت يقول :

— ليقتل الرسول وليبعث برأسه إلى سيده !

فانحنى ايبافروديت واستـدار وهم بالخروج ولـكن نيرون أردف قائلا:

— كلا . . انتظر . . ليس الذنب ذنب الرسول . اعطه حفنة من الذهب وليقل لمولاه ان نيرون يعرف كيف يعاقب الخونة كما يعرف كيف يكافىء المخلصين الامناء

ثم استقدم رجال حرسه وبسط لهم حقيقة الموقف وقال :

— سأغدق نعمى على كل من يخلص لى . أما أعدائى فمصـيرهم الموت . وأما القائد فندكس فأنا لا أخشاه . وماذا يهمني من جيش بلاد الغال ما دامت جيوش الشرق وبلاد أسبانيا تخضع لى ؟ ! . .

وكان يعتقد ان عناية الآلهة لم تنصرف عنه بعد

ولـكنه شد ما ذهل عند ما علم بعد أيام ان جيش أسبانيا تمرد

ونادى بقائده (جلبا) امبراطوراً ، وان جيش جرمانيا ثار ونادى بقائده (كابتيو) امبراطوراً أيضا ، وان جيش أفريقيا انتقض هو الآخر وخالف الجيشين المتقدمين وأعلن ان قائده (ماسو) هو الجدير بأن يصبح قيصراً على الرومان

وصعق نيرون عند ما أنبأوه ان جلبا يزحف على روما تؤيده جيوش الغال وبلاد أسبانيا ، فاستسلم لجنونه وصرخ فى أعوانه وقد أعماه الغضب والرعب قائلا :

— آمر بقتل حكام الاقاليم وذبح قواد الجيوش اذ الكل خائنون والكل يستحقون الهلاك . أما الاجانب الذين يملأون روما فيجب التخلص منهم ، يجب اعدامهم كى لا يفروا ويلحقوا بالجيوش الثائرة . واذا اعترض مجلس الشيوخ فسيعدم الشيوخ أيضا . . وأما النصارى فسألقى بهم بين أنياب الضوارى لأستريح من دسائسهم ونفاقهم . ولكننى قبل كل شىء أريد عزل القناصل وسأعلن نفسى ديكتاتوراً وأسافر الى بلاد الغال وأواجه جنودى وأهيب بهم قائلا : « اقتلونى أو اتبعونى » ، وسوف تأخذهم الشفقة على حظى فيستفيق حبهم القديم لى !

وكان لا يدرى ما يقول لفرط ما برح الجنون بعقله واستحوذ الرعب على كل جارحة فيه

كان كالأسد السجين فى قفص ، يضرب القضبان ويزأر ويبحث عن مخرج فلا يستطيع

واختلطت أوامره وتنافرت وصار يناقض بعضها بعضا ، فاستوثق أعوانه من جنونه فتنحوا عنه ، ثم تمردت القبائل وأبت حمل السلاح والدخول فى حرب من أجله ، ثم رفض الملاك دفع الضرائب ، ثم فرت الوصائف والمحظيات من القصر ، فأمسى نيرون وحيداً شريداً لا صديق له ولا مشير غير الجاريتين اللتين احتضنتاه صغيراً ، وغير تابعيه فاون وسبوروس وسكرتيره ايبافروديت والمرأة الوحيدة التى أحبته

وأخلصت له ، والتى تأهبت لكل تضحية فى سبيله والتى قدرها فى هذه اللحظة فقط ، ألا وهى الحسناء البريئة القلب النبيلة النفس الصافية العينين أكتيه ! . . .

وتواردت الأخبار المقلقة وتعاقبت الأنباء المروعة ، ووجم سكان روما ، واضطرب مجلس الشيوخ ، ورأى ألا يتخذ قراراً حاسما إلا بعد أن تدخل جيوش القائد جلبا أرض ايطاليا

وعندئذ علم ايافروديت أن طلائع جيش القائد فندكس هبطت من سهول لومبارديا الى لاتيوم فأسرع الى سيده يصحبه التابع سبوروس ، فألفيا نيرون مكفهر السحنة محدودب الظهر ينتفض خوفا ورعبا ، فتقدم اليه سبوروس وحاول أن يتكلم ولكن صراخ الجماهير الثائرة ارتفع فجأة وتصاعد من الشوارع وتغلغل فى أبهاء القصر وخنق الألفاظ فى حلق التابع

وأخيراً خفتت الأصوات وتباعدت فتشجع سبوروس وقال :

ـــ يجب أن تفر ! . . . الساعة عصيبة ، ولكن القمر تحجبه السحب ولسوف تصل الى اوستيا دون أن يراك انسان . ومتى بلغتها ففى وسعك أن تبحر حيث تريد !

فصاح نيرون :

ـــ أفر أنا ؟ . . تريد أن يفر سيد العالم ملتحفا عباءته مطأطىء الرأس كعبد ؟ . . لن أفر ! . . سأظهر على الملأ وأخطب فى الشعب وأرحل الى بلاد المشرق حيث تنتظرنى امبراطورية أرحب من هذه وأعظم !

فابتسم ايافروديت ابتسامة ساخرة وقال :

ـــ إعلم أنك لو عرفت فلا بد أن تقتل !

فدمعت عيناه وقال كطفل :

ـــ أتظنهم يبغضوننى الى هذا الحد ؟

فأجاب سبوروس فى بساطة قائلا :

— لقد صبروا عليك طويلا ولقد نفد الآن هذا الصبر !
فأطرق نيرون ولم يجب فانفعل ايبافروديت وصرخ قائلا :
— تكلم . علام عزمت ؟
فأجال بصره الزائغ فى الحجرة وقال :
— غداً ! . . انتظروا الى غد . فقد تنقذنى الآلهة غداً ! . .
فقال ايبافروديت :
— أنت وشأنك . ولكن لن تلعن غير نفسك اذا ما أوصدت عليك أبواب المدينة فى الغد !

فنهض نيرون وترك الحجرة واتجه نحو مخدعه وحاول ان ينام ، ولكن الشعور بالموت استولى عليه فهجر فراشه مذعوراً،وخرج الى ردهات القصر فلم يقع بصره على واحد من حراسه فارتجف وأدرك أن الجميع قد تخلوا عنه ، فتحامل على نفسه وذهب فأيقظ سبوروس وايبافروديت وفاون وقال لهم وعينه اليسرى مغمضة ورأسه يتأرجح وبدنه المقوس المضمحل أشبه بكتلة أناخ عليها القدر :
— الساعة عصيبة ! . . . لنفر ! . . .

فتداول الرجال الثلاثة ورأوا أن من المستحيل عليهم الهرب الى أوستيا لأن الأسطول أعلن انضمامه الي القائد جلبا ، فاجمعوا الرأى على الفرار بنيرون الى قصر (فاون) الكائن على بعد اربعة أميال من روما

وانسلوا تحت جنح الظلام ، وحجب نيرون وجهه بقناع كالنساء ، ثم امتطوا الجياد وألهبوا ظهورها ضربا حتى وصلت بهم الى القصر . وهناك استبعد الخدم وسيق الامبراطور المحجب الى غرفة نائية مهجورة طرحت على أرضها وسادة كبيرة سرعان ما ارتمى عليها وقد انهكه التعب

ارتمى على فراش أحد العبيد وان انينا ممزقا وقال فى اتضاع :
— أشعر بجوع ! . .

فجاءه فاون بقطعة من خبز وقدح ماء ، فاحنى رأسه وشرع يأكل وهو يتمتم قائلا :

— هذا هو المصير الذى انتهى اليه سيد العالم !

وبينا هو يزدرد لقمته سمع صوت فى الخارج فترك فاون الغرفة ثم عاد وقال وهو يرتجف :

— هذا أحد رجالى أنبأنى ان الحرس أبصروك على أبواب قصرك واخطروا مجلس الشيوخ بفرارك ، فأرسل المجلس كتيبة من الفرسان لتعقبك . . .

فنهض نيرون مبهوتا وارتعدت شفتاه ولم ينطق بكلمة . فاستطرد فاون قائلا :

— اعلن مجلس الشيوخ أنك عدو الوطن وقضى عليك بأن يشد عنقك الى ظهر جواد وان يضربك الجلادون بالسياط حتى تموت

وجثا فاون عند قدمى نيرون وابتهل قائلا :

— مولاى . . كن جديراً بعظمتك . لا تسلم نفسك حيا . أنقذ شرف الامبراطورية وشرفك !

فخطا نيرون خطوة وقال بصوت متهدج :

— انتهى كل شىء اذن ؟ . . يحكمون علىّ بالموت بعد ان رفعونى الى مصاف الآلهه ؟ . . ليكن . . اعطوني خنجراً وانشدوا يا أصدقائى نشيد الموتى . . سأكون الضحية والكاهن ! اعطونى خنجراً !

فقال ايبافروديت :

— هاك هو ! . .

وناوله الخنجر فاختطفه نيرون وتحسس النصل بيده ثم جمد لحظة واجال طرفه الشارد فى انحاء الغرفة وقد ملكه الرعب وخيال الموت المنتظر

وظل متردداً يتوقع ان تحدث الآلهة معجزة . ظل متردداً لأن الحياة كانت تجيش فى نفسه كما تجيش القوى الطبيعية فى عرض العالم

ولأنه لم يكن ليتصور ان المجد قد يغدر به ، والعدم قد يكتنفه كما يكتنف أى إنسان . وصاح يقول :

— ربما عنى عنى ! . . كيف ؟ . . أموت هنا ؟ . . على فراش أحد العبيد ؟ . .

فتململ فاون وقال :

— التمس اليك .. اسرع فانا اسمع وقع حوافر جياد ، وقد يحاصر القصر بعد لحظة !

فهدر نيرون وقال :

— لا أريد .. احفروا لى قبل ذلك قبراً أراه بعينى ويكون جديراً بجثة امبراطور ! . .

فصرخ سبوروس :

— تشجع يامولاى . . واذكر العذاب الشائن الذى ينتظرك . . اذكر الميتة الفاضحة التي أعدوها لك وأنقذ نفسك من الحياة

فأرسل نيرون حشرجة طويلة وقال :

— آه .. أيتها الآلهة ! ... أأكون فنانا عبقريا ثم اموت ؟!.

وعاد فى بطء فتحسس نصل الخنجر وقد جحظت عيناه وتجلت على وجهه ملامح الجنون ثم أدنى النصل من عنقه وكان ايبافروديت واقفا خلفه فلم يمهله ومد ذراعه فطوق بها عنق مولاه ثم أمسك بقبضته ، وبكل ما فيه من قوة دفع بالخنجر الى أقصى العنق ، فزأر نيرون وانتفض انتفاضة فظيعة ثم ضرب الهواء بذراعه اليسرى ثم تحشرج صوته وسالت من فمه الدماء ثم هوى على الارض واصطدم رأسه بحجر شجه فى اللحظة التى فر فيها سبوروس وفاون وايبافروديت والتى فتح فيها الباب ودخل أحد الجنود الذين كلفوا بالبحث عن نيرون

وراع الجندى ما ابصر فتراجع اشمئزازاً ورعبا ، ثم استدار وأوصد الباب خلفه وكر راجعا من حيث أتى يعلن النبأ فى روما ويبشر أهلها بمصرع الطاغية

ولم يكد يختفى الجندى حتى فتح الباب مرة ثانية ودخل ايافروديت متسللا كاللص ، ثم تقدم . وانحنى على جثـة الأمبراطور وجردها من الخواتم والأساور والأقراط ، ثم وضع هذه الثروة العظيمة فى كيس صغير ، وفكر لحظة فى مسـتقبله الزاهر المكفول ، ثم تناول يد الامبراطور وقبلها فى احترام وعينه تدمع ، ثم نهض وألقى على الجثة نظرة أخيرة وانصرف دون أن يوصد الباب . .

* * *

وبعد ساعتين فتح باب الغرفة للمرة الثالثة ودخلت منه امرأة

دخلت اكتيه زائغة البصر مترنحة وقد ارتسم على وجهها الضامر كل ما تحمله نفسها من حب عظيم ويأس بالغ

دخلت وجثت بجوار حبيبها وقد انهمرت من عينيها الدموع ، ثم احتضنت الجثة وحاولت أن ترفعها ولـكنها كانت قد تصلبت وثقلت واحتواها جمود العدم

وعندئذ أجهشت اكتيه بالبكاء وغمغمت قائلة :

— دوميسيوس ! . حبيبى دوميسيوس !

ثم انحنت أيضا ورفعت الرأس بين كفيها وألصقت شـفتيها المحمومتين بذلك الفم الذى كان صوته ملء الدنيا ، ذلك الفم الذى ابترد وتقلص . . وأغلق الى الأبد !